بروكـــا

(حكاية الفتى رضا)

بسم الله الرحمن الرحيم

بروكـــا

(حكاية الفتى رضا)

الكاتبة: عهود عبد الكريم السرحان

رواية

حقوق الطبع محفوظة
All Rights Reserved
Telif hakkı saklıdır
الطبعة الأولى 1440هـ – 2019م

Next Level Rezidans-Kızılırmak Mah.
Dumlupınar Bulvarı No.3/B Kat :5,502
Söğütözü - Çankaya - Ankara - Türkiye
+90 312 999 82 17
+90 312 999 600 9
info@akyolyayin.com
www.akyolyayin.com

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Tüm Hakları Saklıdır Bu yayıncının önceden yazılı izni olmadan bu bilgilerin çoğaltılması, aktarılması veya çoğaltılması yasaktır.

إهداء

إلى الوطن الذي نُحبه رُغم أننا لم نولد أو نعش فيه، هذا الانتماء للإنسانية

إلى الجزائريين الذين جعلوني أرى الجزائر من خلال قلوبهم البيضاء

(إلى الشاب عبد القادر الربيحي والسيدة أم ريهام) ولكُلٍّ أبطال روايتي الذين عشتُ معهم ولا زالوا يتعلَّقون بأحبال ذاكرتي.

فهرس المحتويات

المرحلة الأولى

1-أما قبل 13

2-أما بعد 22

3-المفصل 33

4-التحول 41

5-الهاوية 53

6-لون الموت 67

7-في المنتصف 73

8-دقَّ قلبي 81

9-مِنْحة 91

10-مِحنة 99

11- ما فقدت 107

المرحلة الثانية

12- رحمة 113

13- صِرَاط 115

14- فِتنة 123

15-انقسام 133

16-حُلم 137

17- ظُلمَة 143

18-الراعي 149

19-التِيه 155

20- تحرير 161

21- القاصي 165

22-الداني 17

23-أما قبل 177

24-أما بعد 181

مُقدمة

تناهى إليَّ من ذلك العالم الآخر البعيد عن ذكرى أمي وصوت البلورات، صوت يده تحمل العصا صارخًا يُريد القضاء عليَّ. أكان عليَّ أن أنهي الحكاية هُنا! أن أنهي فصول الألم بفصلٍ واحد! هل من معنى لحياتي بعد الآن. أنا رضا، طفلُ الجبال.

لكنني لم أتمكن من التفكير حينها، لم يُنجبني والداي لهذه اللحظة. كانا يُخبرانني دومًا بأنني سأعيش سعيدًا. لهذا تمكنتُ من رفع صوتي وأنا أحمي وجهي بيديَّ. آملاً بأن يخرجَ هذا الصوت، فاقدًا للأمل الأخير الذي تمسكتُ به مُرغمًا.

"بروكا"

امتد صوتي بقول الآه لتصبح تعبيرًا عن الألم وارتفع صوتي عاليًا، ختامًا لاسمٍ ليس اسمي، ولكنه منقذي.

طوال سنين كم تمنيتُ أن أسمع صوتي، أن تُغرد حُنجرتي. أن أكون طفلاً طبيعيًا مثل باقي البشر، كان الكلام يُحشر في عقلي إلى أن يُعاد دفنه. لأن لا مكان له في العالم الخارجي. أكنتُ أحتاجُ لكل هذا الخوف لكي تُنبت الأجنحة على كلماتي! ألا يا ليتني لم أتمنَّ. كيف لي أن أعلم أن تحقيق هذه الأمنية يعني أعيش دون عائلتي، دون مأوى وجبل.

المرحلة الأولى
8 شباط 1993
غابة تابلاط

الجمرة

كانت الأشجار الكثيفة تُظلل وتحجب الشمس، تنوء بجذوعها، تتواطأ مع الأرض دون قصد. تُمهِّد الجمر للنار، وتحجب المطر.

اجتمعوا خلفَ الأشجار، أجتمعَ الحجاب الحاجز على هيئة بشر، حيثُ يُصبح القلب مجرد عضلة والرئتين لاستنشاق دخان الموت، وهذه الأجساد تُمجِّد الفَراغَ وتملؤهُ بما تُريدُ.

أُطلقت النيران من البنادق، كان بمُنافسيهم من الضعف ما يلزم، ومن قلة الأمر ما يُحتِّم على الموتِ أن يتلقى أجسادهُم بكل سُهولة، كانتْ أسلحتهم قليلة وآلياتهم غير مُدعمة ضد الرصاص، اجتَمعتْ الطبيعة التي وجِدَتْ للسَلام مَع قلوبٍ لا تركعُ للأرضِ إلا لتناول السلاح.

لَم يُعرف المصدر، كل هذا الجمر الذي يحترق، فجواتٌ كثيرة ممتلئة .لم تمتلئ إلا بالجمر.

من الغـابة كـثيـفـة الظِلال انطلقـوا إلى الجـبل، حيثُ السمـاء تشـهـد والأرض التي حَصـدت بذورهـا قبل أن تنمو بأن الحيـاة قد استحدثت الموت من خلال البشر.

(1)

7 شباط 1993

جبل تابلاط /ولاية المدية

أما قبل ..

بدأ الأمـر عندمـا راودني ذلك الإحـسـاس، بأن سـقف منـزلنا سينهار، شعرتُ به يتحرك كأن يداً كبيرة تُمسكه وتقوم بهزه، نظرتُ للأعلى حتى زاغت عيناي. كان الاهتزاز يُخيفني جدًا، ولكنني كثيرُ الخيال والتوهم وهو الأمر الذي تعلمهُ عائلتي تمامًا.

لذا قـررتُ عدم التسرع فـأغمـضت عينيَّ بشدة لكي يتبـقى إحـسـاسي بما يُحيطني. هدأتْ الأرض فـشـعـرتُ بالسكينة، لكن الاهتزاز عاد بشكلٍ أقوى.

فتحتُ عينيَّ وركضتُ بأقصى ما استطيع إلى والدتي أرتجف مرعوبًا. كانت والدتي تُحرِّكُ قدرها الكبير خارج المنزل وتحيطها هالة النار المُشتعلة حتى كادت أن تصبح لون عينيها. تجلَّت الأرضُ أمامي، بأزهارها البتول التي تُصارع الحياة بين الحجارة الكبيرة، والمسطحات الخضراء التي لا تزالُ بقايا الثلوج تطفو على جوانبها والشمس الخجول خلف الغيوم تنتظر أن تتوسط السماء.

فكرتُ قليلًا، هل ستتطبق الجبال على بعضها وتدفننا معها! هل سيختفي كل هذا الذي أمامي بلمحة بصر. كان الخيالُ كفيلًا بجعلي مذعورًا أكثر. تشبثتُ بثوب والدتي المُطرز بخيوطٍ فضيِّة. لكنها اكتفت بالتحديق بي وهي تواصل تحريك الطعام، قامت بنزع ثوبها من يدي ثم رمقتني بنظرةٍ غريبة، لم أعد أدراجي كما كُنت أفعل دومًا أمام نظرات أمي، لهذا سقطتُ عند قدميها أراقب ما تفعلهُ بصمت. لم يتحرك بؤبؤ عينيَّ عنها وهي لم تعد تلتفت إليَّ، كأننا لوحةٌ مُعلقة على جدارٍ مهجور.. لِمَ لا أحد يشعر بهذه الأرض سواي! لِمَ بدأ الأمر بهزة أرضٍ على جبالنا العزيزة.

أنا رضا، طفل العشرة أعوام، أسكنُ في الجبال مع عائلتي المكَونة من والديَّ وعمي وأولاده الثلاثة الذين يسكنون منزلًا خلف منزلنا. في هذا المكان غير المأهول بالسكان. تمكَّن والدي من امتلاك كل مساحات هذا الجبل وذلك تحقيقًا لحلمه بالسكن في الجبال بعيدًا عن السكان وضوضاء المُدن.

أعلمُ جيدًا بأن الحياة هُنا رائعة مع أشجار الزيتون وحقول القمح والفاكهة، وأجد مُتعةً بعدِّ أشجار البلوط ومحاولتي تسلقها. واللعب مع كلبي شاهق وشرب الحليب من الأغنام. لكن يُمكنني القول بأن والدي من أجل تحقيق حلمه، قد قضى على أحلامنا منها حُلم والدتي بحياةٍ مُستكينة بقرب عائلتها في مدينة وهران.

جلسنا في الخارج على مائدةٍ طويلة من خشب. أجلسُ دومًا في المقعد المجاور لوالدي ولم يمنعني أحد يومًا. أمعنتُ النظر في الطاولة فشعرتُ بها تتحرك، نظرتُ إلى عمي الشارد الذهن، عمي أصغر من والدي ولحق بوالديَّ بعد أن أفلس وترك الجميع خلفه

منهم زوجته التي لم تتحمل الحياة بعيدًا عن مسقط رأس عائلتها، لكن أولاده الثلاثة لم يتركوه وقرروا التخلي عن كل شيء لأجل والدهم. عندما أمُعِن النظر في عمي أشعرُ بضعفه الشديد أمام والدي، وقدرة والدي على التحكم بالجميع من ضمنهم عمي الذي كان نحيلاً وطويلاً يكاد يصل أشجار النخيل. هكذا كُنتُ أشعر في طفولتي كُلما وقفتُ إلى جانبه وكلما حملني بين ذراعيه، بأنني وصلتُ السماء وأصبحتُ بعيدًا عن الأرض. وأذكرُ جيدًا جبينه المُتغضن وعينيه الصغيرتين وكتفيه اللذين ينحنيان كُلما شعرَ بالحُزن. عمي بقلبه الكبير الذي كان يُحبني أكثر من حبه لأولاده.

حطَّت عيناي عليهم واحدًا تلو الآخر، فأدركتُ من ملامحهم الهادئة أن لا أحد يشعرُ بحركة الأرض سواي، وجعلني هذا أوقن بأن كل ما أشعرُ به وأراه هو من بنيات خيالي ولا علاقة للواقع فيه.

وفي غمرة صمت الجميع تكلم ناصر، وهو ابن عمي الأوسط يتجاوز العشرين من عمره:

"أبي، لديَّ ما أخبرك به".

أتمعنُ بابن عمي مليًا، أراه جسدًا قويًا بقلب عصفور، ودماغًا يحملُ جناحيٌ صقر، لطالما كُنت أعتلي هذين الجناحين، يأخذني ناصر بخنادق قلبه المُغلق ثم يُريني العالم الذي يقبعُ في عقله. وكان السبب الأول بتلك الأحلام الواسعة التي كانت تجتاح دماغي، فقد كُنتُ أرى العالم من خلال كلامه وصوته. إنه عالمي الأصغر قبل الولوج إلى العالم الأكبر.

نشلني من تفكيري سُعال عمي، كأنه تنبأ بما يريده ابنه أو أن جسده تنبأ بذلك دون أن يصل هذا الأمر إلى تفكيره. اومأ لناصر كي يكمل حديثه، فأكمل قائلاً:

"أريدُ أن أغادر المنزل والبدء في مكانٍ آخر، أريد أن أكون حُرًا في حياتي.. وسأعود عندما أحقق كل ما أريد".

أخبرني ناصر بأنه مُقيد، وبأن وجوده في هذا الجبل أشبه بوجود العبيد، حيثُ لا قرارٌ خاصٌ له ولا حياة، أخبرني عن أنفاسه التي يشعرُ بها مكتومة وعن اللهيب الذي يشتعل في قلبه كلما فكَّر بكل هذا، كما أن الماضي يُصبح دفعةً قوية للهروب.

أخبرني عن حلمه بعملٍ مستقر وبيتٍ دافئ مع زوجةٍ وأولاد حيثُ سينسى فيهم آلامه التي كانت تقتلعه كشجرةٍ في مهب الرياح.

أخبرني بأن قلبه المُقيد يمنعه من النوم وجناحيٌّ حلمه يأبيان الرقود، وأكد عليَّ بأن هذا السر الذي يتقاسمه معي لن يبقى سرًا. أظن بأن هذا اليوم المُنتظر لناصر والمشؤوم لي قد أتى. كانت عيناه اللامعتان بدموع ندية تنتظران جوابًا كان يعلمهُ مُسبقًا، استند بجسده الطويل إلىً الطاولة وثبتَّ أنظاره على عمي الذي رد بعنف:

"لا مكان لك سوى هذه الأرض، ستموت إن خرجت منها.. ستتبعك لعناتي طوال العمر".

اللعنة؛ كانت هذه اللعنة التي تداولتها الألسن منذُ سنين، بأن من يخرج من الجبل سيلحقه الموت أينما يذهب وبأن كُلَّ مصائب الدنيا ستحلُّ على رأسه. كانت هذه الأقاويل تجدي نفعًا معي، وتسبب لي كوابيس لا مُتناهيه، حيثُ أرى نفسي خارج الجبل مُلاحقًا دون أن أرى من الذي يُلاحقني. لكنني أشعرُ بأنفاسي بعد أن أستيقظ وهي تكادُ تنقطع كأنني ركضتُ لأميال. وعندما أرى جدران المنزل أكون ممتنًا بأنني لم أخرج من الجبل. وقد يكون هذا السبب بما شعرتُ به هذا الصباح.

رُغم أن ناصر أخبرني بأن هذه أكاذيب نُسجت لكي لا يخرج أحد ونبقى معًا إلى الأبد، قال لي وهو يهمس بأنه لا يُصدقهم وبأن اللعنة حقًا هي السجن الذي يشعر به هُنا، رُغم أن الأرض واسعة إلا أنهم يحيطونها بأسوارٍ من أكاذيب. هذا مُجرد سجن.

فصدقته ليس لأنني أراه صادقًا بل لأن الفكرة أراحتني من الرعب المتلاحق في أحلامي.

كان وجه ناصر الأسمر يلتهبُ حنقًا، وعيناه البنيتان تزيدان من عذوبتهما كُلما أصبحتا أكثر غرقًا بالدموع. صَمتَ الجميع كما هو المعتاد عند حديث أي اثنين، وأنا صمتٌ كالمعتاد أراقب بعينيَّ. كان عمي يُكمل طعامه ليثبت بأن الحديث قد انتهى وبأن القرار هو البقاء. فهذا التهديد دائمًا ما يكون مجديًا مع الجميع.

لكن الأمر لم يجدِ نفعًا مع ناصر. وَقفَ وتبعتهُ أنظار الجميع. قال وهو يتفادى نظراتهم مطأطئ الرأس في صحن طعامه الذي لم يأكله:

"لكنني سأذهب وسأتحمل عبء هذه اللعنات".

غادر ناصر، هذا الشاب المُتقدِّ بالأحلام، غادر وهو عازمٌ أن لا يعود أبدًا. لم يتمكن أحد من منعه أو حتى المحاولة.. اكتفى الجميع بإكمال ما يقومون به حتى كدت أظنهم لا يتنفسون أيضًا. لكني أنا؛ رضا .. كُنتُ أستمعُ لشكواه كل يوم، تُغنَّى آلامه أمامي بلحن الناي الحزين.. كُنت أعلم بما ينوي فعله، على يقين بأنه سيتركنا ذات يوم. رُغم كل هذه المعرفة إلا أنني تألمت ولم أظن بأن الأمر سيكون صعبًا لهذا الحد. ازدادت حِدَةُ الألم في صدري كُلما رأيتُ قدميه تناضلان للمغادرة، تحملانه بعيدًا عني.

ناصر هذا الملاك الذي لن يُغادر ذاكرتي لفترةٍ طويلة. أظنها للأبد، هذه اللحظة التصقت بذاكرتي رُغم أنني سأصبح فيما بعد ممتنًا لمغادرته الجبل.. فهو سيبقى حيًا ولن يموت.

تحوَّل الألم لطاقةٍ جعلتني أقفز خلف ناصر راكضًا، وصراخ أمي يتبعني تأمرني بالعودة. عانقتُ قدميه بكلتا يديَّ حتى منعتُ حركته، كُنتُ قصيرًا بجانبه. طفلاً باكيًا مدللاً حتى شعرتُ به أمي التي لا أستطيع التخليَّ عنها. كان وجهي يُعانق قميصه الأسود الذي خاطته آية قبل فترةٍ طويلة، رُغم أنه لم يلبسه منذ تلك الحادثة إلا أنه أراد الوداع فيه، بل أراد أن يكون متاعه الذي يأخذه معه. ذكرى هذا الجبل لن تغادره مع هذا القميص وهذا العطر المصنوع من الأزهار.

كُنا على مسافةٍ بعيدة عنهم، فقط أذناي تمتصان هدوءه وحزنه وكلماته الأخيرة:

"يجب أن أذهب يا بروكا".

ضربتُ قدمه، ضَحِكَ ثم قال:

"يا رضا .. يجب أن أذهب، لكن عندما تشتاق إليَّ فقط نادني".

ضحك مرةً أخرى لكنني رأيت يديه تبتلعان الدموع من عينيه قبل أن يسقطا. ذهب ناصر ليبقي السرُّ في قلبي أنا.

كان شعورًا سيئًا يجتاحني في لحظتها،لم أستطع تمييز كنهه. لكني رجحتُ بأنه أكثر سوءًا من لحظة اقتلاع شجرة السنديان التي

شقَّت البلاط المجاور لغرفتي خوف أن تخترق جذورها المنزل وهي المكان الأحبُ على قلبي حيثُ كُنت أنسج الكثير من الأحلام تحت ظِلها. أسوأ من الأيام التي جلستُ أقشر بها حبات البطاطا لكي نبيعها وانا أتوق للعب مع كلبي شاهق، حتى إنها أسوأ من اللحظة التي اهتزت بها الأرض ولم يشعر بها سواي.

عدتُ إلى الطاولة حيث عائلتي وصمتهم القاتل أسوأ من هذا كله.

في مساء ذات اليوم عاد الجميع لأعمالهم المُعتادة، ولا كأن روحًا قد جُزَّت من بين أرواحهم، رغم أنني شعرتُ بذلك الفراغ بعد ناصر. كأن جسده كان يتخذُّ شكل أرضٍ كبيرة، أصبحت فوهةً من بعده.

كُنتُ معفيًا من الأعمال، فقد كانت أمي تُعطيني هذا اليوم حتى لا أتذمر في باقي أيام العمل. رغم أنني لم أكن أظهر لها شيئًا، لكن عينيها الخارقتين كانتا تخترقاني وتتلصصان على المنافذ الداخلية التي تطلُّ على أسراري.

شاهدتها طوال اليوم وهي تنظف الباحة وتسقي الماعز وتحرث الأرض وتزرع البذور ثم ترش الملح على أطراف البيت لتطرد الجان الذي لا أعتقد بأنه يستطيع الوصول إلى هذه البقعة النائية.

كان من المُفترض أن ألعب لكن لا طاقة لي على السعادة وكُل هذا الحزن يسكن قلبي. لهذا كُنت أراقب أمي، تلك المرأة الخارقة في كل شيء.

أما والدي بجسده الضخم وعضلات يديه القويتين وعينيه السوداوين كليل مُبهم كان يجمع قطع الخردة ويُعيد تصنيعها ويتمكن بكل سهولة من تصليح السيارات. كان ماهرًا بذلك وهو من درَّب ناصر الذي كان نبيهًا وسريع التعلم.

يقوم والدي بالعمل في الجبل طوال الأسبوع ليأخذ في نهاية هذا الأسبوع كل ما قام بتجميعه وتصليحه بشاحنته الكبيرة التي تتسع لكل شيء. والأهم لجسدي الصغير بجانبه حيثُ أبقى مُلتصقًا بالنافذة أراقب طريق الجبل مرورًا بالغابة الكثيفة وصولاً إلى السوق.

كان جميع من في السوق يعرفني ويربتون على رأسي كلما رأوني وببشاشة أتناول الحلوى من المارة الذين يغدقونها عليَّ، ما يميزني كان ردائي المختلف عن أقراني في السوق.. أرتدي دومًا بنطالاً واسعًا برباطٍ شديد عند الخاصرة وثوبٌ يصل إلى ما بعد ركبتيَّ بقليل، قامت أمي بخياطته لي كشبيهاته من ملابسي العتيقة، قد يكون هذا ما يميزني حقًا أو هو شيء آخر تمامًا.

أما عمي وأولاده وحتى والدتي فكل عملهم هو الزراعة حيث أنها شغلهم الشاغل وتحتلُّ كل مراكز التفكير. كما كان يقول والدي دومًا:

"إن الأرض أكثر وفاءً من البشر، فكلما أغدقت عليها تُعطيك أكثر ولا يُمكنها نكران اهتمامك بها".

ويُخبرنا بأنه لهذا السبب اختار الحياة هُنا. بعد أن تأكد بأن البشر غير مؤتمنين وأننا يجب أن نبتعد عن الاختلاط بهم كي

نُصبح كالطبيعة تمامًا. أن تكون قلوبنا قابلة للعطاء وإن أخذت أجسادنا الكثير.

لا أعلم إن كان ما يُخبرني به والدي هو الحقيقة، فأنا لم أختلط بأحد، كُنت متوحدًا بالطبيعة حتى أصبحَ جسدي جذرًا مُمتدًا إلى أعماق الأرض ويداي جذوعًا تصل السماء.

لكنني أعلم بأن الأرض بالتأكيد تُعطينا الكثير.. إننا نتناول منها ولا نحتاج شراء كل شيء من السوق.

(2)

8 شباط 1993

أما بعد

"أنظروا للأرض جيدًا

ثم ابحثوا عن العدل..".

بدأ اليوم بعكس ما انتهى به، ذكرى البداية والنهاية مُلتصقان ببعضهما. كانت الشمس الخجول تختبئ خلف الغيوم، والثلج يُغطي مناطق شاسعة. روح هذه الأرض تتنفس وتطلق العنان للحياةِ. حياةٍ تُخفي الموت بين جنباتها كقطعة سُكر يأكله النمل.

رُغم أن الاهتزاز تكرر اليوم أيضًا، لكنني تجاهلته. لن يكون أسوأ مما حصل البارحة، رُغم أنه لا وجود لمقياسٍ للأسوأ على الإطلاق.

عبرنا الغابة التي كانت تحمل رائحةً غريبة لم أميزها، تبدو أشجارُ الصنوبر والبلوط واللوز وأشجار الزيتون حزينة كأنها تُريد الصراخ لكن لا صوت لها، التصقتُ بالنافذة حتى كدتُ أخترق زجاجها. قال لي والدي أن أبتعد قليلاً لأن التصاقي سيجمع أنفاسي كغيمةٍ كبيرة تحجب الرؤية عني وهذا ما حصل حقًا،

رسمتُ دوائر صغيرة شاهدتُ من إحداها شجرةً تُقتلع وتهوي إلى الأرض. عدتُ للخلف قليلاً مدهوشًا فاغر الفم، تمعنتُ بنفس الدائرة لكن الشجرة عادت لمكانها. نهرتُ نفسي قائلاً:

"اصمت يا رضا، وكفاك تخيلاً".

سمعتُ والدي بجانبي يتكلم مع نفسه أيضًا لكن بصوتٍ مسموع، كان يُناجي الطريق ويتغزل بالأرض ثم قال بصوتٍ عالٍ كأنه يلقي بقصيدةٍ من العصر القديم أو تعويذةٍ جديدة:

"إذا ما استشهدنا دافعوا على أرواحنا، نحن خلقنا من أجل أن نموت، لكي تستخلفنا أجيال لاستكمال المسيرة".

كانت الكلمات تنساب إلى أذنيَّ رغم أنني لم أدرك معناها الحقيقي أو المغزى الذي دعا والدي لقولها في هذه اللحظة. حتى أنه بدا طفلاً كبيرًا مُنتشيًا بالطبيعة كأنها والدته التي ترضعهُ من حليبها. أنتبه لشرودي بملامح وجهه وعيني المُنفرجتين فابتسم بوجل، كتفاه تهتزان مع حركة الشاحنة على الطريق الوعر الذي مررنا به. قال لي وهو يقرصُ خدي:

"اعذرني يا طفلي الصغير، لقد نسيتُ للحظةٍ وجودك".

ضحك كثيرًا كأنه ألقى بدعابة فابتسمت لأن ضحكته دغدغت روحي ثم أكمل يقول:

" لقد قال هذه الجملة المُناضل العربي بن مهيدي، أنت لا تعلم يا ولدي عدد الجزائريين الذين ضحّوا بحياتهم من أجل هذه الأرض. هل تعلم لِمَ يفعلون ذلك! ألا تعلمُ حقًا..".

أخفَضَ من سرعة الشاحنة ثم نَظرَ إليَّ بشكل متتال لكنني شعرتها نظراتٍ شاردة كأنه يخترق المستقبل ويقرؤه، لو كان لي خيار العودة إلى الماضي لتمعنتُ أكثر في عينيه، لعانقته إلى أن وصلنا .. أكمل يقول:

" لقد خُلقنا يا بُنيَّ من التراب، لكن لا تظن بأن هذا التراب ذا ثمن بخس.. إنه غالٍ جدًا، لدرجة أن أرواح الكثيرين ذهبت فداءً لهذا التراب. إن ترابَ الجزائر يا بُنيَّ يستحق التضحية".

تأملتُ باقي الطريق وعيناي تنظران لحبات التراب مُفكرًا بما قاله والدي. ثم لاحت لي بوابة السوق.. قفزتُ سعيدًا كأن روحي لامست الجنة وقلبي ينبض فيها. كانت البوابات تشعُّ بأنوار أصحابها المُبتهلين، أولئك الذين يتنافسون لبيع منتوجاتهم اليدوية، أو المُطرزات التي صُنعت على أيدي نسائهم.

وعندما دخلتُ وأنا أمسك بيد والدي إلى السوق ربتَّ على رأسي رجلٌ مُلتحٍ ذو وجهٍ مُنير وابتسامةٍ ودودة وهو يخبر والدي بأن لديه ابنًا جميلاً. كان يحمل بيده زيَّ المجبود بخيوطه الذهبية ثم قال لوالدي وهو يعرض الزي بتباهٍ:

" هل ترى يا أبا رضا! لقد صنعتُ هذا الزي بيديَّ.. لكن لا أحد يُصدق ذلك، يقولون بأن زوجتي من قامت بخياطته، هل تصدق أنت ذلك!".

ضحك والدي وهو يُجيبه:

"أصدقك تمامًا، وأعلم بأن يديك ساحرتان يُمكنهما صنع المُستحيل. لكن أخبر زوجتك أن تصنع واحدًا لي أيضًا".

ضحك الأثنان كثيرًا وابتسمتُ معهما ثم أكملنا طريقنا لنتوغل في السوق أكثر.

يبدو أن زوجته مثل والدتي، فوالدتي تصنعُ القشابية من الصوف الأسود، تقوم بتنقيته ثم غزله ووضعه على آلة النسيج. لا يُمكنني فعل ذلك كوالدتي أبدًا، فقد صَنعتْ زي القشابية لكل عائلتنا، ويرتدونها في فصل الشتاء لتقي من البرد الشديد.

كانت أصوات الباعة تملأ السوق، فهناك من يبيع الأواني الطينية والأواني الخشبية المنقوشة برسوم مُذهلة، والجلود وملابس الصوف والأواني الخزفية الملونة، والحنبلً.

تمكَّن والدي من بيع كل ما كان يملكه في الشاحنة، ثم جلسنا نشربُ الشاي مع صديقه، هذا الصديق الذي يُفضله والدي ويجلس معه كل مرةٍ ليتبادلا الحديث. كان يبدو أصغر من والدي بكثير وشعرهُ الأسود طويل يُغطي أذنيه ورقبته، يمتلكُ ملامح حادة حتى عندما يبتسم.

قدَّم لي هذا الصديق كوبًا من الحليب كان لذيذًا لدرجة أنني لم أنسَ حلاوته في لساني رغم كل تلك المرارة التي ستُحفر في لساني وسيدوِّنها عقلي.

تحدثا كثيرًا وقال والدي بأنه ينوي فتح ورشةٍ خاصة له في السوق يأتي إليها كُل يوم، نظرتُ إليه راجيًا أن يكمل حديثه ليقول "مع رضا". لكنه لم يقلها ولم يفهم مغزى نظراتي.

أصابتني خيبةٌ لم تستمر عندما شاهدت مجموعةً من الأطفال

بالقرب منا، يلعبون بأحجار بلورية ويركضون خلفها ليقفوا بالقرب منها بانتظار الطفل الآخر الذي يمتلك أيضًا كرة بلورية تحمل ألوانًا مختلفة في جوفها. كانوا يتصيدون بعضهم البعض ويحملون الكرة بكل دقة في أصبعين أحدهما يُطلق الكرة باتجاه الآخر. راقبتهم حتى شعرت بأنني ألعب أيضًا. كُنت أبتسم كلما ابتسموا وأضحك مع ضحكاتهم. وددت لو كنتُ معهم أمنيةٌ لم تستمر لليوم التالي. لم أستطع الاكتفاء بمراقبتهم، أمسكتُ يد أبي ولا تزال عينيَّ مثبتةٌ عليهم خوف أن تفقدهم وأشرت لوالدي بأنني أريد ما بأيديهم.

لم أكن مُتطلبًا ولم أزعج والدي يومًا من أجل أي لعبة، لهذا كان لا يتذمر من ذهابي كل نهاية أسبوع.

ضحك والدي وقال بأنها لعبة (البي)، وما إن سمع صديقه الحديث حتى وَقفَ من مكانه وهو يقول"لدي الكثير منها، أولادي يزعجونني بها في البيت لهذا أخذت مجموعةً كبيرة وخبأتها هُنا" قالها وهو يضحك وأنا استقبلت كلامه وكُل ما بداخلي يرقصُ سعادة.

كما هو طعم حلاوة الحليب في لساني، لا يُمكن أن أنسى برغم كل الخسارات التي ستأتي لاحقًا، شعوري بهذا المكسب. أن أمتلك لعبةً طلبتها. إنها نشوةٌ تتحرك بسرعةٍ هائلة في جسدي تكاد تحملني قفزًا في كل مكان.

وضعتها في يدي وخبأتها في جيب بنطالي تحت الثوب وكنتُ أتفقدها في كل حين بلمسها فوق الثوب فأشعر بالأمان، بأنها لم تسقط.

انتهى اليوم الجميل، اليوم الأخير؛ وإن تعددت الأسماء، يبقى يومًا لن يعود ولن يتكرر.

وصلنا المنزل قبل غروب الشمس بقليل، لا يكون الأمر غريبًا إلا عندما تعتاد عليه كشيءٍ مُستمر وأبدي، ثم يختفي فجأة. إما أن يكون غريبًا بشكل مُخيف أو تعتاد على غرابته. كما هو اعتيادنا على رؤية والدتي كُلما عُدنا من السوق ورائحة طعامها اللذيذ مُختلطٌ بعبق الأزهار الذي يعانق ثوبها. وكما هو غريبٌ ألا نجدها اليوم بانتظارنا.

وبعد كلِّ هذه السنوات، وكلما عادت ذاكرتي لهذه اللحظة الفاصلة في حياتي، حيثُ يُمكنني بعدها أن أقول قبل أو بعد كشيء انقسم لجزأين، أو أرضٍ انقسمت لقسمين أو روحٍ انفصلت عن الجسد.

أتذكر ملامح والدي التي تغيرت كأن أحدًا ألقى بقنبلةٍ أمام وجهه، لم أتمكن من ترجمة تلك الملامح، أنا الطفل الصغير المُدلل.. أنا الذي لم أفهم الحياة إلا بعد هذا اليوم، كأن الحياة لا تُفهم إلا من الألم.. إلا من جرعاتٍ كبيرة جدًا من الألم.

ذاكرتي التي صُقلت من الدم؛ أتذكر باحة المنزل وتلك الأزهار التي اعتنت بها والدتي طوال سنين قد جُزَّت كأنها لم تكن يومًا حية. أتذكر الصمت الشبيه بصمت المقابر الذي حلَّ بالجبل.

أين صوت عمي يُنادي أولاده للعودة إلى المنزل لتناول الطعام، أين رائحة طعام أمي الشهي، أين حركة المحراث التي كانت تملأ الأرض، أين نباح كلبي.. حتى الأرض ابتلعت صوتها كما هو صوتي.

أتذكر سكون المنزل لكأن الجان الذي كانت والدتي تطرده كلَّ صباح قد تسلل دون أن تشعر وقلب الدنيا رأسًا على عقب ثم ذهب. تلمستُّ ما بجيبي وهدأ قلبي عندما وجدت الكرات في مكانها، كيف لقلبي استشعار ما هو أكبر.

ترجَّل والدي من الشاحنة بعد أن طلب مني البقاء فيها، كان اصطفاف الشاحنة بشكل عكسي لكي يُنزِلَ والدي ما أشتراه من قطع لتركيبها لاحقًا، لم تكن كثيرة لدرجة أن تحجب ما ورائها لهذا أخرجَت الكرات البلورية وضممتها بيديَّ، وتابعت والدي بعينيَّ وهو يمشي صوب المنزل.

كان منزلنا كبيرًا، القسم إلى جهة المزرعة من المنزل كان من الحجر الأسود بُني منذ القدم، أما القسم الأخر من الإسمنت، وبيت عمي خلف منزلنا مباشرة، كل هذا يمشي بالتسلسل في ذاكرتي على مرأى عيني.

خطوات والدي تتسع، يفتح الباب المؤدي للبيت الحجري، يتوقف. يرفعُ يديه، تهتز الأرض من تحتي.

ألصقتُ وجهي بالزجاج لكي أرى ما يراه والدي، لكنها لم تكن سوى والدتي، ابتسمت ودقَّ قلبي فرحًا. لم أفكر ماذا يعني غياب أمي، لكنني شعرتُ بأن وجودها مُريح ويدعو للسعادة. لكن!؟

كان جبينها أحمر، لم أفهم.. لم أفهم إلى أن تَقدمتْ أكثر وكان لون الشفق يسقط عليهم ويضلل الرؤية في عينيَّ، ظَهرَ بعد هذا الشفق ما أدركت لاحقًا بأنه الظلام وبأن الجان الذي وصل البيت لم يذهب، كانوا عصبة رجال يصوبون أسلحتهم في وجه والدي وكل

واحدٍ منهم يمسك أحدًا من عائلتي، تركوهم واصطف عمي واولاده بجانب والدي، أما والدتي فوصلت مترنحة إلى أن سقطت عند قدميه. أوقفها وأسندها على كتفه وهو يلُّوح بيديه وينطق كلماتٍ لا أفهمها. تمعنتُ أكثر بهؤلاء الغرباء، كانت عيونهم تشتعل جمرًا، وملابسهم رثة. كأنهم خرجوا من تحت الأرض، هذه الأرض انقسمت وأخرجتهم من بطنها.

كُلما عادت ذاكرتي لهذا اليوم يأكلني الندم، يأكلُ قلبي ويلتهمه، ينبثقُ الندم من عيون أمي الدامعة وصوت أبي وأجساد أولاد عمي وقلبُ عمي. ينبثق من جسد الطفل الصغير الذي لم يترجل من الشاحنة لأن والده طلب منه ذلك، من الطفل المُطيع الذي رأى الخطر يُحدق بعائلته وبقي مكانه يُراقب بعينيه كأنه يشاهدُ فلمًا حزينًا ينتظر منهُ نهايةً سعيدة.

إن التمني سكينٌ بقيت تشحذ رأسها في قلبي.. كل يوم بعد هذا اليوم.

أبي بجسده القوي وأمي بثوبها الأسود، على يمين والدي يقف عمي الذي أشعر جسدهُ منحنيًا للأمام وكأن طوله أنقسم لنصفين وبجانبه أولاده صالح وسليم بأجسادٍ غير مُستقرة كأن الكون ينام على أكتافهم.

خلال ثوانٍ كأنها ومضة عين، كأنها صاعقة برقٍ في شتاءٍ قاحل، وجهت الأسلحة الكبيرة إلى عائلتي، أعيد ما حصل آلافَ المرات. ما الذي حصل!

أعيد الألم ملايين المرات، وأندب ما الذي حصل؟ ثم أصرخ.

أناديهم من الموت، من بين براثن الأسلحة التي اخترقت أجسادهم وجعلتهم يغطون في سباتٍ طويل. أصرخ أمامهم، دعوني أنام معكم، أتوسل إليكم.. لا هم يسمعونني ولا تلك الرصاصات تعود لأسلحتها. فأبقى وحيدًا.. وحيدًا للأبد.

ما الذي يُمكنه لطفلٍ في العاشرة من عمره أن يفعل أمام هذه الفاجعة الكبيرة وهو محصورٌ بين دفتيِّ شاحنة يُشاهد من نافذتها. ما الذي يُمكنه أن يفعله غير البكاء والتخبط على الزجاج الذي لا يستطيع كسره، صغيرٌ بجسدٍ ضعيف وعقلٍ لا يمتلك إلا القليل.. القليل من الفكر والكثير من الذكريات التي سيحفرها في عقله كل يوم بعد هذا اليوم.

من بين دموعي شاهدت المسلحين ينطلقون للشاحنة بعد أن جمعوا مؤونتهم من منازلنا ووضعوها في ظهر الشاحنة، رأيتهم يخبؤون أسلحتهم أسفل قطع الحديد التي لن يصنعها والدي أبدًا.

صَعدَ مجموعةٌ منهم في الخَلف وأغلقَ الاثنان المتبقيان ظهر الشاحنة ثم سارعا إليَّ.

كانت النظرةُ الأخيرة لي لهذه الأرض المُقدسة، اشتعل المحصولُ وصعدتْ النيرانُ أكثر، من أين لهم أن يعلموا بأن والدي يخاف على حبة القمح أكثر من خوفه على أولاده، كيف لهم أن يشاهدوه عندما يستيقظ في منتصف الليل لكي يُراقب محصوله وهو يكبر، كيف تجرأت هذه النيران أن تبتلع حُلم والدي، وحياته.

بعد إن التقطا أنفاسهما، رأياني متكورًا في المنتصف، أخبئ وجهي بين يديَّ، أخبئ ألمي الذي لا يُخبأ. لم يعمل من جسدي سوى

أذنيَّ اللتين كانتا تسمعان كل شيء، انطلق صوت الرجل الذي كان يجلس مكان والدي، كصوت حفيف الأشجار:

"من أين أتى هذا الطفل؟! علينا أن نسرع بقتله".

أجابه الآخر بأن ينطلق بسرعة قبل قدوم أحد؛ لا أحد يأتي هُنا اطمئنا.. لا أحد وجد هذه الأرض سواكم.. حتى الجان لم يتمكن من الوصول إلى هذا الجبل. هل أنتم أقوى من الجان.. لماذا لم تخبرني والدتي عنكم، لماذا أخبروني بأن اللعنة تحصل عندما نخرج من الجبل، كيف حلَّت اللعنة ونحنُ فيها. هل السبب هو ناصر، هل جعلها تأتي إلينا لأنه خرج من هُنا. تفكيرٌ يخترق عقلي كالرصاص، لكنه لم يقتلني بعد، لم يجعلني أنام مع عائلتي.

انطلقتْ الشاحنة، وانطلق عُمري بأكمله. لم أرفع رأسي أبدًا، ولم أشاهد الطريق لكنني كنتُ أشعر بالقفزات التي تتأرجح بسببها الشاحنة، كانا صامتين طوال الطريق لم ينبسا بحرف كأن الموت أنتقل إليهما أو كأنني في رحلة الموت الأخيرة، انتقال الروح من الجسد.

يبدو أن سكون حالي جعلني أغفو قليلاً، لكن ارتفاع الشاحنة عن الأرض ثم عودتها مرةً أخرى قد أيقظني، كُل ما فعلته بسرعة بأنني تلَّمستُ كفي فكانت البلورات موجودة، كأن هذه البلورات هي الدليل على الأمان. جعلني هذا الإحساس أدرك بأن ما حصل كان حُلمًا، كابوس اللعنة عاد بعد أن ذهب ناصر، هو من كان يُطفئ لهبها بكلامه. يُمكنني أن أفتح عينيَّ الآن؛ حدَّثتُ نفسي.

يُمكنني الآن أن أرى والدي وهو يوقف الشاحنة مُعلنًا أننا وصلنا، يقول لي يا رضا استيقظ لقد وصلنا.. أترى هُناك كلبك

ينتظرك لقد اشتاق إليك، انظر إن والدتك تريد أن تأخذك بين أحضانها لتقول لك بأنها أعدت الطعام الذي تحبه.

بلهفةُ المُشتاق، بيقين طفل، رفعتُ رأسي لأتلقى أول صفعةٍ من الواقع حيثُ تقف عبوة ماءٍ تحول بيني وبين رؤية ما بعد ذلك، نظرتُ إلى يميني لأجد قاتل عائلتي يبتسم، كيف للحلم أن ينهار بابتسامة وأن تشتعل نيران قلبي بعبوة ماء.

ففغرتُ فمي بأقصى ما استطيع، فلم يخرج من حنجرتي أي صراخ، لم أتمكن من الصراخ، حُشِرَ الصوت في داخلي وكاد أن يقطع أوتار حنجرتي، ما كان لي من حيلة سوى الدموع. نظرا إلى بعضهما ثم إليَّ وهما متعجبان لصمتي، لطريقة بكائي وهدوء حزني.

أنا رضا طفل العشرة أعوام.. أنا رضا..

(3)
المفصـــل

"في موسمٍ ما؛
أُحرِقَتْ الفراشاتُ من جناحيها،
وأُبيدتْ الأزهار من أوراقِهَا
في مَوسمٍ ما.. اُغتيلتْ حديقتي".

تمكنَّا من تحمِّل صمتي إلى أن وصلنا للمكان الذي يسكنان به، شعرتُ بتوقف الشاحنة. لكنني لم أرفع رأسي.. ساد صمتٌ قصير قُطِعَ بصوتٍ يأمرني بالنزول ولكنه لم ينتظر أن انفذه بل اقتلعني من الشاحنة كجذرِ عفن.. نظرتُ للخلف لتلك الشاحنة التي ركبها أحدهما ليأخذها بعيدًا، هذه الزرقاء التي رأيتها طوال عمري. لن أراها بعد اليوم، لن أشتَّم وقودها الذي يسبق قدميَّ والدي بالقدوم، لن أرسم أحلامي من نافذتها.

كانت الدموع في مقلتيَّ كحجر، كانت عيناي كبحرٍ عميق يغرق به الحجر.. وكان قلبي القاع.

تناولني الرجل الذي كان يجلس على يميني، أدخلني لأحد المنازل الصغيرة.. منازل بيضاء أبوابها مُتهالكة. كان كل ما بداخلي

يصـــرخ. " أمي، أبي ... آهٍ يا أمي" يـزداد الصـــراخ حـتى شـعـــرتُ بجـدران روحي تتـمـــزق "أنا أتوسل إليكم أيقظوني، هذا الكابوس طويل.. أنا خائف".

لم يســمـــعني أحـد، وهـذا الكابوس ممتـد. أجلسني الـرجل بجانبـه، ترتكز يده على قدمه وهو ينظر إليَّ بهدوءٍ يشبـه هدوئي، سألني بودٌ:

"ما اسمك يا فتى".

لم أتمكن من إجابته، صرختُ بداخلي " أنا رضا .. رضا".

"فقط أخبرني ما اسمك، لن أفعل لك شيئًا".

بكيت، تحولَّ الحجر في مقلتيَّ لأنهار.

"ألا تسمع، قل شيئًا".

استمر بكائي حتى تفتقت روحي واهتز جسدي، ومُحيت الرؤيا من أمامي. لكن ملامحه الحادة وعينيه بلون الليل الحالك كانتا تخترقان دموعي لتسكنا على هيئة خوفٍ يُحيط جسدي.

في غمرة الألم انتزعني الآخر من كتفي، حملني منها حتى شعرتُ بها تتفسخُ من جسدي، لم يعد إحساسي بها إلا بعد مدة. كان تناوله لي مفاجئًا ولم أعِ ذلك إلا بعد أن هوى بي إلى الحائط، تمكنتُ من سماع النبض فيَ أعلى رأسي، وصوت عظام ظهري. خلال لحظة؛ ركعتُ على الأرض وخبأتُ رأسي بين يدي، كيف يُمكنني أن أعود! فكرتُ بذلك تلك اللحظة، رُغم أن التفكير لن

يُجدي نفعًا، لكنني كُنتُ طفلاً. طفلاً في العاشرة من عمره. لم يملك في حياته إلا جسدًا صغيرًا وقلبًا ضعيفًا ولسانًا..!

كان الصوت فوق رأسي يردد، يجعلني أرتعد:

"نحنُ نُقدِّم رؤوس الأطفال في طعامنا، أتحب ذلك!".

" تكلم وأجب".

خبئ الحُزن يا قلبي، خبئ الخوف بين جدرانك. أيقظ قواك وأجب، لكن ما فائدة الحياة وهذا الموت الذي خلَّفَتهُ. ندمتُ أيضًا أنني كُنتُ جبانًا أمام الموت، بأنني تمسكتُ بالحياة رُغم أنني تجرعتُ الألم منها بيوم واحد. ما الذي تحملهُ هذه الأنفاس لتجعلنا مُتعلقين بها إلى هذا الحد، إلى حدٍ تجعلُ طفلاً عاجزًا يتشبثُ بها في آخر لحظة.

لم أتحرك، كأن الكون كله يقف فوق ظهري. ركلني مرةً أخرى على بطني ركلةً جعلتني أنقلبُ على ظهري.

وقفا فوق رأسي يُراقبان حركتي، قال أحدهما للآخر:

"ألاحظت، إنه لا يصرخ!".

أدركتُ بأنه الرجل الرحيم من تكلم، لأن الآخر باغتني بضربةٍ بعد أن قال:

" إنه فقط يُجيد التمثيل".

تتابعت الضربات على رأسي وجسدي الذي شعرته يشتعل،

يُعيد كلامه حتى كاد أن يكون ترتيلاً. ما اسمك؟ سيكون جسدك طعامًا لكلابنا! لن أدع للحياة مكانًا في جسدك.

رُغم كل الضجيج، وهذا الكون المُنغلق أمامي، تمكنتُ من سماع ذلك الصوت مُتفردًا يأخذُ عالمًا كاملاً؛ فرأيتُ بالقرب مني تلك البلورات التي تدحرجتْ على الأرض، تلك التي حَفرتْ مكانًا في يديَّ لشدِّ ما احتفظتُ بها. تدحرج حلمي معها وأدركتُ رغم أنني لم أكن أجيد الإدراك حينها، بأن عالمي الجميل قد انفصل عني منذُ اللحظة التي رأيتُ بها الدماء على جبين أمي وهذه اللحظة التي تهاوتْ بها البلورات.

تناهى إليَّ من ذلك العالم الآخر البعيد عن ذكرى أمي وصوت البلورات، صوت يده تحمل العصا صارخًا يُريد القضاء عليَّ. أكان عليَّ أن أنهي الحكاية هُنا! أن أنهي فصول الألم بفصلٍ واحد! هل من معنى لحياتي بعد الآن. أنا رضا، طفلُ الجبال.

لكنني لم أتمكن من التفكير حينها، لم يُنجبني والداي لهذه اللحظة. كانا يُخبرانني دومًا بأنني سأعيش سعيدًا. لهذا تمكنتُ من رفع صوتي وأنا أحمي وجهي بيديَّ. آملاً بأن يخرجَ هذا الصوت، فاقدًا للأمل الأخير الذي تمسكتُ به مُرغمًا.

"بروكا"

امتد صوتي بقول الآه لتصبح تعبيرًا عن الألم وارتفع صوتي عاليًا، ختامًا لاسمٍ ليس اسمي، ولكنه منقذي.

طوال سنين كم تمنيتُ أن أسمع صوتي، أن تُغرد حُنجرتي. أن

أكون طفلاً طبيعيًا مثل باقي البشر، كان الكلام يُحشر في عقلي إلى أن يُعاد دفنه. لأن لا مكان له في العالم الخارجي. أكنتُ أحتاجُ لكل هذا الخوف لكي تُنبت الأجنحة على كلماتي! ألا يا ليتني لم أتمنَّ. كيف لي أن أعلم أن تحقيق هذه الأمنية يعني أعيش دون عائلتي، دون مأوى وجبل.

منذ تلك الحادثة في السوق؛

وبعد أن فقدتُ القدرة على الكلام كانت أمي تقول لوالدي وهي تتذمر:

"ما الذي يقوله الأطباء، ها!؟ منطقة ماذا التي أصيبت لكي يفقد طفلي الكلام".

كان والدي يَردُ دومًا بنفس نبرته المتهكمة البالغة في الأسف لأجلها لأنها لا تؤمن بالقضاء:

"بروكا، إنها منطقة بروكا، وتقبَّلي ما حصل. فإنه لن يتغير بكلامك".

فتجيب وهي تلوِّح بيديها أمامه:

" لو لم تأخذه معك.. لو لم تغفل عنه لما حصل كل هذا".

والدي لا يؤمن بكلمة "لو" إنه يؤمن بأن ما حدث سيحدث لو اجتمعت الأرض على عدم حدوثه، لهذا تحمَّل ما حصل بكل بساطة، أما والدتي فاستكانت له بعد مدة.

توقف هبوط العصا فوق رأسي وارتفع صوتُ أنفاسي. تلاقت أنظارنا، عيون الظبي بعيون الأسد.

أصبح الاسم الغريب مُقترنًا بي، ينادونني به متى ما أرادوني. احتجتُ وقتًا لكي ألتصق بهذا الاسم كطوقٍ مُعلَّق على حمامة. كان ناصر هو الشخص الوحيد الذي يُلَّقبني ببروكا، وذلك بعد أن سمع والدتي تُعيد الكلمة على أسماعها لكي تحفظها، فيهمس أمامي "آلا نُسميه بروكا، هكذا ستحفظين الكلمة، فقط أضيفي إليها حبسة؛ حبسة بروكا" ثم يضحك بعد أن يرى علامات الغضب تعلو وجهي.

يبدو أن عقلي من حفظ الكلمة وليست أمي، لكن ناصر ليس هُنا ليقول لي"رضا، أنت حبيبي وصديقي رضا" ثم يُكمل الضحك وهو يرفعني عن الأرض.

هل كان سيضحك اليوم لو سمعني أقولها بدلاً عنه، أن ألصق الاسم بي طوال عمري بدل أن أمحوها، تعال يا ناصري، إن رضاكَ عَقدَ هُدنةً مع الموت وباع اسمه.

بعد أن خَمدَ غضبهم، تمكنوا من الإدراك بأنني طفلٌ أبكم لم يجيد سوى نطق كلمةٍ واحدة. عشتُ معهم دون أن أعلم سبب حياتي بعد الآن. لستُ مفيدًا لهم ولا مُفيدًا لي. لهذا تجرعتُ الألم كل يوم وحدي. تباغتني الوحدة ليلاً حتى تكاد تفتكُ بي. لأستيقظ مُتعجبًا لهذه الحياة المتمسكة بي. ولهذا الجسد الذي ظننتهُ ضعيفًا لن يتمكن من الحياة يومًا واحدًا بعد الذي حصل، بعيدًا عن الجبل.

بعد أن أصبَحَتْ غمامة الحُزن تتوسع ومدارك الفكر تُصبح أعمق، أدركتُ بأنني أعيش في عالمٍ مُختلف، عالم يحملُ بين طيَّاتهِ عوالم. كانوا مثل جيشٍ صغير بقوةٍ كبيرة. تجتمعُ نساؤهم في المساء، همساتهم تكادُ تلمسُ الجدار. يعيشون على صوتِ الرياح

وحركة الأرض. أما أطفالهم فلم تُكن أمارات الطفولة لتظهر عليهم، يمتلكون أجسادًا صلبة، وأكتافًا مشدودة وقلوبًا تأكل الحجر.

جلستُ ذات يوم معهم، أستمع لخطاباتهم التي تناولت مواضيع عن الشجاعة والتضحية بالنفس والدفاع عن الأرض والمُطالبة بالحقوق.

حشرتُ نفسي بمكانٍ قَصِيٍّ في المجلس، وأفكاري تنمو رويدًا رويدًا.

أين الشجاعة بقتل عائلة لا تملكُ سلاحًا! ما هو الدفاع عن النفس ولم يقترب منهم أحد، أي حقٍ يتكلمون عنه وقد سلبوني حقي في الحياة!

لم يتكلم معي أحدٌ من اولادهم ولم يشاركوني أحاديثهم، لم تتبناني أمهاتهم ولم أعش كما ينبغي لأي مظلومٍ أن يعيش، كنتُ أقل من ذلك بكثير.

لم أتمكن من العيش بينهم، كنتُ مثل صخرةٍ نائية، لهذا انشقَّ الحجر ونبتَ ذلك الجذر من جديد. كُنتُ أقترب منهم شيئًا فشيئًا. بدأ الأمر عندما شاهدتُ إحدى النساء تقوم بتقطيع الخضار لتقوم ببيعها، تجلسُ أمام المنزل وهي تُغطي وجهها بوشاحٍ أسود يظهرُ من خلاله عينيها. تفردُ خضرواتها بجانبها وهي تمَدُّ قدمًا وتضع الأخرى أسفلها . تقدمتُ منها فجلستُ القرفصاء أمامها وأنا أراقب حركة يديها البطيئتين، أكوامٌ من حبات البطاطا تنتظرُ منها تقشيرها، مَددتُ يديَّ أمامها فَنظَرتْ بعينيها اللتين كانتا كحبتي زيتونٍ أسود. أدرَكتْ بأنني أريد مساعدتها، قامتْ بوضع السكين

في يديَّ فأذهلتها سرعتي حتى جعلتها تصفق بيديها وهي تقول "إنك مُعجزة" .

انتشر بينهم أنني أملك يدًا ماهرة، لا يعلمون أن هذه اليد كانت تقاوم كثيرًا لكي لا تفقد القدرة على الحركة بعد الحادثة. لا يعلمون بأن هذه اليد قد دُلِكَتْ كثيرًا من أمي وهي تضعُ زيت الزيتون الدافئ وتقرأ آيات الشفاء.

تحوَّلتُ من أسير لخادم، فأصبحَ هُناك معنى لإبقائهم لي حيًا. على الأقل سببًا مُقنعًا لهذه الروح التي تتجول بينهم وهي صامتة. امتدت الأيام وهم يخفون أنفسهم ثم يعودون لهذه القرية يعيشون بشكل طبيعي، والله وحده يعلم كم جبلاً قد أبادوا. وكم شاحنةً سرقواً. وكم طفلاً!!

"كم رضا تحوَّل لبروكا".

(4)

أيار 1993

التحوُّل

"قناديل الكون مُطفأة

تناضلُ الشُعلةَ الأخيرة في قنديلي

لكي تُنير.." .

تعلمت بأن الكلمات تشبه البذور، عندما تقوم بزراعتها في دماغك فهي بحاجة للري لكي تنمو. زُرعت كلماتهم في دماغي، قاموا بريِّها حتى تأصلت جذورها.

أذنيَّ تمتصان كلامهم، تعيشُ الكلمات بآلامها وأحاسيسها، كُنتُ أشاهد الكون كشيءٍ بعيد، الآن أصبحتُ متوغلاً بالكون. أعيش فيه، أشعر، أحزن وأتأثر. مثلهم تمامًا.

أرى بعيونهم وأسمعُ بآذانهم وأشعرُ من خلال قلوبهم، حتى أصبحتُ ألوم العالم على هذا الظلم الذي ألحقه بهؤلاء البشر المنفيين عنه والمناضلين أمام الحياة .

كيف يمكنني أن أقاوم أمام حكاية الأم التي فقدتْ أولادها وهم يدافعون عن حقوقهم، كيف يمكنني ألا أشعر أمام الجائعين وأمام الأشخاص الذين يطلبون حياةً كاملة، ثم فهمتُ لاحقًا. بعد وقتٍ

طويل أن الأمر أكبر بكثير من هذه الشاشة المعروضة أمامي، التي تُريني ما تريد وتخفي خلفها الكثير من الحقيقة. الحقيقة الكونية التي يعيش عليها البعض ويريدُ للكرة الأرضية أن يعيش عليه.

هذا الحقد الذي تربَّع في قلبي، لم يُنسني فجوة السؤال التي بقيت في داخلي "ما ذنب عائلتي! ما ذنب طفلٍ أن يُخطف من حياةٍ كاملة ليعيش بينهم!".

رغم هذه الفجوة إلا أن نارًا كانت تشتعل بداخلي كل يوم، عندما بدأ صمتي يخنقني وكلماتهم تتحول لكتاب مُتصفح في عقلي اقرؤه كل يوم قبل أن أنام وأستيقظ صباحًا وهو لا يزال مفتوحًا يطلب مني أن أعيد ما قرأته.

لم يضمني بيتٌ واحد، لهذا كُنتُ أنام كل يوم في مكانٍ مُختلف، وأحيانًا أحشرُ نفسي بين قدمي أحدهم لكي أنامَ، لكنهم لم يعلموا بأن هناك ليالٍ كثيرة لم أتمكن من النوم فيها. كوابيسٌ تدقني وتسلبُ أنفاسي وتقضُّ مضجعي.

خفتُ هذه الليلة من النوم، فأغمضتُ عينيَّ أحلمُ بالماضي كما لو كان حيًا لأبتسم مجددًا، أحتاجُ أن أمنح قلبي القليل من السلام. فأنا مُتعب، متعبٌ جدًا.

إن الشيء الذي لم يعلموه جيدًا بأن فقداني القدرة على الكلام قد حفزَّ مكامن السمع لديَّ، يُمكنني سماع الهمسات مهما كانت خفيفة. كانت والدتي تقول لي "يجب أن نُعطيك للسلطات الحكومية لكي تساعدهم على سماع خطوات العدو قبل أن يصلوا" تضحك ثم تُكمل " أنك تأتي إليَّ قبل أن أكمل مناداة اسمك".

وفي هذه الليلة تمكنتُ من سماع كلماتهم كُلها، حديث رجلين، كان أحدهم اسمه (عباس) ولم يكُن كرهي له دون سبب، رُغم أنه لم يقترب مني يومًا. لكن ابتسامته السامة عندما يشاهدني من بعيد وأنا أعمل مع أحدهم أو أجلس في مجالسهم، رغم أنني أكاد أكون لا مرئيًا للبقية. لكن نظراته تخترق الجميع لتحطَّ على وجهي وتلك الابتسامة التي يبرز منها أسنانًا مكسورة تُثير حقدي.

كانا يُشعلان منقلاً من الجمر والقليل من الحطب ويضعون عليه إبريقَ الشاي، وحدهما وأنا من خلفهم ألتصق بالحائط وبجانبي رجلٌ آخر يغطُّ في نومٍ عميق يتخلله شخيره المُرتفع.

همسَ عباس بأذن صديقه الذي لم أتذكر اسمه، لكنني أتذكره من صوته. قابلته مراتٍ قليلة، فقد كانت مهامه في الخارج كثيرة. يُهمل لحيته حتى تكاد تصل لصدره مُشعثه ويتخللها الشيب. عيناه صافيتان بلون القهوة، قصير القامة لكن بنيته شديدة.

"ألا ترى بأن علينا أن نستغل هذا الفتى الأخرس، المدعو بروكا. لماذا نحتفظ به كُل هذه المُدة وهو لا يمتُّ لنا بصِلة".

أجابه الآخر وهو يحرك الجمر، لأنني سمعتُ شررها الذي يتطاير:

"لكنه يبقى طفلاً يا عباس، لا يُمكنه فعل شيء. وإن أمسك به نموت جميعًا".

ضحك عباس ويُمكنني أن أتخيل شفتيه الرماديتين وأسنانه المتآكلة فيرتجف جسدي، قال:

"هل تعي ما تقول، إنه أخرس لا يُمكنه سوى قول اسمه. قد يُقتل بين أيديهم من التعذيب قبل أن تخرج كلمة مُفيدة من بين شفتيه. هذا الأحمق".

صمتا قليلاً لأدرك بأنني أسمعُ أيضًا دقات قلبي، أكمل يقول:

"سوف أقترح الأمر على حليم، أشعرُ أحيانًا أنه يُخبئ هذا الطفل لهدفٍ مُعين لكنهُ لا يخبرنا، إن هذا الطفل يأخذُ الكلمات لكن لا قدرة له على العطاء أبدًا بالإضافة لأنه ذكي وليس كأي أخرسٍ آخر. هل تتخيل قيمة الأمر، أم أنك لم تفكر بعد!".

أمسكتُ قلبي بيديَّ لشدَّةِ ما شعرتُ به ككتلةٍ يُمكنها أن تخرج من جسدي فيسمعون وقع خطواتها، ومنها يدركون بأنني تمكنتُ من سماعهم. كان خوفي يدقُّ مثل طبلٍ تسقطُ عليه يدٌ كبيرة. لكن سقوطها مؤلم.

في هذه اللحظة التي يُعدم فيها التفكير، لاحت لي ذكرى أمي. هذه الذكرى التي ترفع اليد عن الطبل. تُسكنُّ الألم وتمسحُ الدموع.

في ذلك الماضي البعيد الذي عاد الآن، كأن عقلي المُتعب يُعطيني جرعاتٍ قليلة تُساعدني على الحياة، يُخرِجُ لي الأموات لكي أحيا على الذكرى.

أمي! خطواتي تتقدم إليها. أتمعن بطريقة اعتنائها بأزهارها التي تصطف بشكلٍ جميل وتُحيط المنزل من الجهتين. كانت تعتني بتلك الأزهار كثيرًا ولم أعلم سبب ولعها بزراعتها. فلا يُمكن أكل الأزهار ولم نكُن نبيعها.

تُلاحظ وجودي ووقوفي الهادئ أمامها بعينيَّ اللتين تشبهان عينيها كما كانت تقول لي آية، تبتسم بودٍّ فابتسم. يخرجُ صوتها الملائكي من جسدها، يخترقُ روحي النائمةِ هُنا تُصارع الخوف من خلال عينيها وصوتها:

"عيناك تُخبرانني أن لديك العديد من الأسئلة التي تختلج صدرك، أيُمكنني أن أخمن".

يهتز رأسي هُناك تحت السماء وهُنا تحت هذا الغطاء، تُجيبني وهي تتلمس الأزهار بكفيها:

"سأبسِّط لك الأمر، أنت الآن يا عزيزي تتمكن من سماع كل شيء وتشعرُ كما يفعلُ كلِّ البشر. يُمكنك أن تُميِّز الأشخاص الذين يحبونك ويهتمون بك. لكنك رُغم ذلك لا تستطيع التعبير عن امتنانك. لكنني أعلم بأنك تمتلك عبق هذه الأزهار وروحها، يُمكنني الإحساس بهذا العبق الذي يختزل بداخلك فأحبك أكثر، وهكذا إحساسي تجاه أزهاري. هل فهمت يا رضا!".

يهتز رأسي هُناك وُهنا، هناك بابتسامةٍ تملأ السماء وهُنا بدموعٍ تروي الأرض.

صدى كلماتها الأخيرة يضيع في الظلام:

" من يعتني بكما بحب، ستملآن حياته عبقًا".

أعود لمكاني تاركًا تلك المسافة البعيدة التي خُطفت مني، رائحة الدخان، شخير الرجل وصوت شرر الجمر يشتعل، أخبريني يا أمي أين أزهارك الآن! ألم تُجزُّ من جذورها! هل سأكون مثلها أيضًا!

أنا اليوم بأيدي من لا يُقَدِّرونَ قيمة الأزهار ولا يعلمون بأنها تسمع وتشعر. شعرتُ بالحنين والألم. لفحتني الذكرى كوشاح أمي الذي نامَ على كتفها عندما ماتت، بين هذا الماضي والحاضر وخوفًا من المستقبل أنا أعيش. أنتظر. أتنفس وأبكي.

متى سيلقون بي إلى التهلكة! كُنتُ أنتظر. أتنفسُ مُرغمًا وأبكي هذا الألم المُختزل. حتى أصبحتُ أخافُ من وقع أقدامهم، أراقب عيونهم وحركاتهم. إلى أن مضى وقتٌ طويل جعلني أستكينُ أخيرًا، وخمنَّت أن حليم لم يوافق على اقتراحهم.

حتى أتى ذلك اليوم، بدأ الصباحُ بالدفء الذي يسري في الجسد فينعشه. فتحتُ القُنُّ على الدجاجات وجمعتُ البيض بسلالٍ ووضعتها لدى أم سُعاد. هذه المرأة الأنموذج الحيِّ على الجشع.

امرأة مُسنة لكنها تتصرف كما لو كانت ستُعمِّر وتُخلَّد. تملأ الشامات وجهها بشكل مُنفر. خطواتها ثقيلة وتحملُ نفسها بصعوبة، تصرخُ بصوتٍ عالٍ لكن كمزمارٍ مثقوب.

وبسبب قوة شخصيتها، وقدرتها على التحكم بالآخرين، جعلوها توزع المؤن على المنازل، لكنهم لا يعلمون بأنها سارقة وتقوم بأخذ أكبر الحصص، إما تُخبئها لمنزلها أو تبيعها.

الأمر الذي يجعل الأمر خانقًا لي، أنها تبتسم وتفعل ذلك أمامي بكل ثقة. لكنني رضا، أنا أزهارُ أمي، اسمع، أشعر وأمتلكُ عبقًا لن تستطيع هذه الجشعة الشعور به.

بعد أن انتهيت من العمل لدى هذه المرأة وبعد أن أنهت سرقتها كالعادة، أُرسل لي أحد الرجال يُخبرني بأن حليم يُريدني. هذا الأخير هو ذاته الذي تحدث معي أول مرة يسألني عن اسمي. وهو المسؤول عنهم جميعًا.

دخلتُ منزله الصغير، كان يمتلك أصغر منزل بالقرية كُلها، بابه بُني بخطوطٍ سوداء يحوي مجلسًا بفراشٍ عتيق وغرفتين صغيرتين، أجلسني بإحدى الغرف التي يضع بها غازًا صدئًا وفوقه يغلي إبريق الشاي .وضع أمامي وعاءً مليئًا بالرفيس المعجون بالتمر وبجانبه قطعةً من المسمَّن. عندما رأيت هذه القطعة أمامي بعد كُل هذه المُدة شعرت بها تُحشر في حلقي حتى قبل أن ألمسها. تذكرتُ طعمها اللذيذ عندما كانت تُعدُّه والدتي في الاحتفالات. أتذكر الكميات الكبيرة التي أكلتها في عقد قران آية.

وقوفي فوق رأسها أراقب يديها تخلطُ العجين ثم تقوم بطيِّه بعد أن تُبلل يديها بالماء. تجلسُ على مقعدٍ قصير وهي تُخبرني مرارًا أن أذهب للعب ثم أعود لتناول الحلوى. ثم تطلب مني جمع العنب من الحقل لكي تصنع منه الحلوى المُفضلة لديَّ.

ذكريات! ذكريات، ذكريات.

للرائحة ذكرى، للكلمة ذكرى. إنها تتحول وتأخذ كل الأشكال. لكنها في النهاية تبقى ذكرى لن تعود.

كان حليم يُربتُّ على ظهري وهو يطلبُ مني تناول الطعام، هل يُمكن تناول الذكريات هكذا! بكل هذه السهولة! وانا أتناول ذكرياتي كان يتكلم دون توقف، يُصبح صوته موسيقى تُهدئ أعصابي

وتمنحني الدفء الذي فقدته طوال هذه المدة، يقول لي بأنني طفلٌ ذكي وبأن الجميع قد لاحظ ذكائي ومهارتي وسرعة إدراكي. يُخبرني أنني سأصبح ذا شأنٍ ذات يوم، وأنه متأكدٌ من ذلك. ثم أضاف:

"منذ اللحظة الأولى التي نطقتَ بها اسمك، شعرتُ بأنك مُختلف، كان يُمكنني إدراك ذلك يا بروكا. أنت طفلٌ ذكيٌ".

أكمل يُثني عليَّ، يسقي أزهاري الذابلة. ينتظر أن يخرجُ العبق من داخلي. أوقفتني كلماته عن تناول المزيد عندما قال:

"أنا أعتذر عن مقتل عائلتك".

هل هذه المرةُ الأولى التي يَذكرُ بها أحدٌ ما؛ عائلتي!

هل هذه المرةُ الأولى التي أسمعُ بها كلمة، عائلتك!

لقد شككتُ للحظة أنني ولدت وسط عائلة، لقد شككتُ للحظة بأنني ولدت من رحم أم وكنف أب.

"لم يَقصُد أحد أن يقتلهم، في يوم ما ستعلم ما هو السبب. وستعذرنا جميعًا، ستكون منا وليس علينا. يجب أن تُدرك ذلك يا بروكا، هل تعي ما أقول. لقد كُنا مُجبرين على فعل كل هذا".

أبتلعُ الذكرى كالسم مع الماء، وأنا عطشٌ جدًا. أنا مُتعب.

اومأتُ برأسي إيمانًا بكلامه، لم أكُن سوى طفل. هل يُمكن لوم طفل! هل سيقول الجميع بأنني نسيتُ عائلتي وانضممت لمن قتلهم، أنا رضا طفل العشرة أعوام. توقف عمري على العشرية السوداء.

مَسحَ دمعتين انسابتا على خدي وطلبَ مني أن أساعده بمهمةٍ صغيرة لا تحتاج مني أي جهد، وبأنها ستكون بداية المعرفة. أن أصل أخيرًا لمعرفة سبب ما يجري حولي. وأن أستبصر الحقيقة.

اومأتُ برأسي وابتسامةً تَشقُّ الدَمع. يُمكنني أخيرًا أن أشعر بوجودي، أن أعيش أخيرًا. كُنتُ أنانيًا أتوق للحياة. يُمكنني الاعتراف بذلك الآن، بأنني تمسكت بالحياة منذُ اللحظة الأولى حتى النهاية.

لم أتوقع بأن تكون المُهمة في مساء نفس اليوم.

قبل غروب الشمس، وضعَ حليم حقيبة على ظهري بعد أن ألبسني أحدهم قميصًا أبيض طويلاً تحته بنطال أزرق من القماش. شعرتُ بالزهو وهو يُلبسني هذه الثياب الأنيقة والجميلة. نسيتُ كل آلامي برداءٍ بسيط وكلماتٍ محشوة. لم أكن أعلم بأن جرحي الأول ثقبٌ أسود سيمتصُّ كل أفراحي القادمة مهما كانت كبيرة.

عيناي تشتعلان أملاً وأنا أصعد إحدى مركباتهم، انطفأ لهيبهما بعد أن رأيتُ عباس من يقود المركبة. شعرتُ بخفقان قلبي وتذكرتُ كلماته في تلك الليلة، طوال الطريق راودتني الأفكار، لكنني لم أنتهِ بنتيجة، متاهةٌ طويلة وجدرانها عالية. هل هو من أقنع حليم بأن يستغل ضُعفي! ألم أكن طفلاً ذكيًا كما قال. مُجرد طفل صغير قُتلت عائلته. هل سأموت اليوم أيضًا! لشدَّ ما فكرت، لشدَّ ما تألمت. لكنني أذعنتُ لذلك كعقاب لي بأنني نسيتُ عائلتي التي ارتوت الأرض بدمائهم. أستحقُ هذا العقاب، أحتاجُ الموت. ألم يُسمعني والدي تلك الكلمات "الأرض تستحق أن نموت لأجلها"، لأجل ماذا سأموت يا والدي! أخبرني، أنا أرجوك.

كان طريقًا يحدُّه جبل من جهة واحدة والجهة الأخرى أرضٌ مُسطحة، مررنا بعدة بيوتٍ من طينٍ وسقوفها من (القرميد)، أطفالهم يلعبون كرة القدم في الخارج، تزهو أجسادهم بملابس ملَّونة، أدركُ من شفاههم الضاحكة بأنهم لا يعلمون بأن العالم مُنقسم، هُم هُناك وأنا هُنا، هم على قيد الحياة وأنا..

توقف عباس بمركبته فاهتز جسدي، نظرتُ حولي لأدرك لو قليلاً ما الذي سيحصل. لكن لا شيء يبدو غريبًا. نظرتُ إليه أنتظرُ أمرًا، لكنه ترجَّل متوجهًا إليَّ. فَتحَ الباب، وضع الحقيبة على ظهري ثم همسَ في أذني:

"انظر إلى ذلك المبني".

أنفاسه تحرقُ أذني وصوته يخترق قلبي.

"أذهب إليه، ثم اجلس معهم. ضع الحقيبة وعُد إليَّ بسرعة".

لم أتحرك، مسك كتفي وعصر يدهُ فيها وهو يصكُّ أسنانه لتخرج الكلمات مخنوقةً مُخيفة:

"هل فهمت!"

اومأت، لن يكون رأسي بعد اليوم سوى للإيجاب، هذا اليوم سينتهي. بالتأكيد سينتهي.

اقتربتُ من البناء الذي يبعدُ عن البيوت مسافةً لا بأس بها، بناءً أبيض يحملُ سقفين مدببين بلون ذهبي وقبةٍ زرقاء تعلو كُلاً منهما وفي منتصفهما قبةً كبيرة فضيَّة. كان البناء كبيرًا مُذهلاً،

وساحته شاسعة. غرقتُ في تفاصيله وعظمته، لكن صدى صوت (عباس) الآمر لا يدعُ لي لحظةً للراحة. فأخبرتُ نفسي بأن أنهي ما يريدون لكي أرتاح. أن أصبح مثل اولئك المارة الذين يعبرون الساحة ذهابًا وإيابًا. مثل ذلك الطفل المُمسك بيد رجل يبدو أنه والده. هذا الأمان مجتمعٌ بيدٍ واحدة، لكن هذا الطفل لن يُدرك قيمة هذه اليد التي فقدها رضا.

كانت الأبواب مفتوحةً على مصراعيها، يَخلعُ الداخلون أحذيتهم في الخارج ثم يجلسون بصفوفٍ مُرتبة. جلستُ على الحائط الخلفي للمبنى المُحاذي للبوابة. أراقب أجسادهم. عيونهم وأيديهم. ينصتون لشخصٍ يجلس في مكانٍ أعلى، يرددون خلفه (آمين. آمين). توحدتُ معهم حتى كدت أنسى ما أتيتُ لأجله، إلا أن ثُقل الحقيبة كان يُرجعني للخلف. تذكرتُ ما قاله عباس، أن أضع الحقيبة ثم أعود إليه بسرعة.

فككتُ حزامها عن ظهري ثم وضعتها وعُدت أدراجي إلى تلك المركبة التي رُكنت بعيدًا عن المبنى، تجاوزتهم جميعًا وأنا أسأل نفسي، هل يُمكنني الهرب! إلى أين سأذهب. لكنهم أخبروني بأنهم يراقبونني ويُمكنهم إيجادي أينما ذهبت، تركتُ الفكرة تغوص في الأعماق وأنا أتمنى لها العوم.

ركضتُ مسافةً لا بأس بها، وقبل أن أصل إلى عباس، شعرتُ بالأرض تُهتز حتى أوقعتني. تذكرتُ الاهتزاز في الجبل! الذي شعرتُ به وحدي دون عائلتي، هل يعود؟ أيسكن دماغي؟ لكنني عندما نظرتُ خلفي أدركتُ بأنه لم يسكن عقلي. بل قد تَحوَّل ذلك المبنى إلى حطام.

وقفتُ على قدميَّ أشاهد الأبيض قد تحوَّل للون الأسود، وذلك الجمالُ البهيُّ قد تحوَّلَ لسراب. غمامةٌ سوداء خيَّمت على المكان، صرخاتٌ كُتِمَتْ تحتَ الأنقاض. تذكرتُ ذلك الطفل الذي تمنيتُ مكانه، أين سيكون! ألا يزالُ ممسكًا بتلك اليد.

اقتربتُ منهم أكثر. لم أتمكن من تحمُّل كُلِّ هذا .جثوتُ على ركبتيَّ وبكيتُ كثيرًا؛ أمام هذا السلامُ المُحطمَ. كُلُّ اهتزاز أشعرُ به يأخذُ أحدًا، يأخذُ الكثيرين. لا تستقرُ الأرض بوجودي، يموتُ الجميع وأبقى أنا وحدي أعيشُ الموت في الحياة.

تَحركتْ إحدى الحجارةُ على الأرض، فامتدت منها يدٌ مُخثرة بالدم والجراح. امتدت تطلبُ مني الحياة ثم سَقطتْ وأنا لا أرى جسد صاحبها. هزَّني الخوف رُغمَ أن الألم كان يحتضنني. ركضتُ بكل ما أستطيعُ من قوة إلى عباس. هذا الهرب لن يمتصَّ الخوف مني. لم أُدرِكُ ذلك حينها.

ورغمَ عينيَّ الغارقتين بالحُزن والخوف والألم كان وجه عباس يرقصُ فرحًا. عيناهُ تموجان وتشعَّانِ سعادة. يُردد وهو يحملني لأصعدَ مكاني.

"كُنتُ متأكدًا من نجاحك. أحسنتَ يا بروكا، يا طفلنا الذكي" يعودُ لمكانه:

" أنت بطل".

تتحركُ المركبة وصوتُ السعادةِ تخرجُ من بدنه، وأنا لا صوتَ لي.

قد رُويتُ دمًا يا أمي، قولي لي، كيف ستكون أزهاري!.

(5)

الهاويـــة

"عودي أيتها السماء للونكِ الأزرق

اهطلِي مطرًا كما السابق

عودي وأرجعيني

طفلاً يعومُ،

طفلاً يُلاطمُ الموجَ فلا يغرقْ".

خيَّمَ الليل، وارتفعتْ ألسنة النار يجتمعون حولها مُحتفلين بانتصارٍ قام به طفلٌ أخرس. كيف لي النوم هذه الليلة! كيف لي ألا أراقبهم في هذه الليلة.

رُغم أن درجة الحرارة مُرتفعة، إلا أنني شعرتُ بجليدٍ يسري في نُخاعي.

أشاهدهم من هُنا، خلف حجرٍ يحتضنني فأنامُ مُتكئًا عليه. يجلسون على حُصرٍ صنعتها نسائهم، يتبادلون الحديث وشربُ الشاي. بين تلك الغمامة ويدُ الرجل، وبين ألسنة النار هَهُنا كُنتُ أحترق. كقطعة ثلجٍ على الجمر كُنت أذوي.

وفي كُل مرةٍ يأكلني بها الألم، أغمضُ عيني لأعيدَ جزءًا من

الماضي. أحتاجُ لهذه الذكرى الآن. للأمان في كنف أمي. أنا أتوسلُ حتى الذكريات الأليمة من ذلك الماضي، ذلك الألم الصغير مُقارنةً بكل هذا.

هل أتذكر كيف كان الكون يَسوَدُ أمامي بسبب توبيخ والدي. في تلك المرات النادرة التي أشعر بها بالحنق والغضب.

أيمكنني تذكر مُزاح ناصر المُزعج والذي ينتهي ببكائي وضحكاتهِ المتتالية. أنا أحتاجُ لتلك اللحظات المؤلمة. أريدُ ذلك الشعور عندما رأيتُ الشجرة المُفضلة لديَّ تُقطع وتتحول لحطب للمدفئة، وعندما نمتُ باكيًا لأنني أريد الذهاب مع أولاد عمي إلى الصَيد.

أنني أتذكرُ الآن، اسوأ لحظةٍ مررتُ بها من هذا كُله. عندما وقعتْ أختي أمامي ثم فقدتها بعد ذلك للأبد. آية!

كانت البنت الوحيدة في العائلة، لهذا كان لها القدر الأكبر من الحُب والعطف والرعاية. كانت كالقمر بين النجوم، أحبها الجميع لكن ناصر كان أكثرهم حُبًا لها.

كانت مزيجًا من والديَّ، خصلات شعرها الذهبي وعيناها الزرقاوان من والدتي ، وامتلكَتْ صفات والدي وقوة شخصيته.

لم تعتمد على ذلك الدلال الذي كان يأتيها من الجميع، بل كانت تُحِبُ العمل. تعشقُ الجبل والمزرعة. تَعملُ مع الجميع حتى امتلكتْ مهارات والدتي في المنزل ومهارات أولاد عمي في الزراعة. لم تتذمر من حياة الجبل. تُغازل الحياة كما لو كانت لها عشيقًا وتُسامر الليل كُلما هَبط. فعشقها ناصر، أحبها حُبًا جما.

أثمرَ عشق الطفولة بالنسبة لناصر، الذي ولِدَ وهو يُحبها كما كان يقول لي. وتمت الخطبة عندما قال والدي لوالدتي "ابن عمها، خليلها" فلكأن هذا الارتباط كُتب في صفحات السماء.

أتذكرُ قميصي الأخضر وحذائي الأسود. أتذكرُ البرنوس الذي كان يضعهُ ناصر على كتفه، بل يضع سعادة الكون. أتذكرُ جمال أختي الذي أبهرنا جميعًا بقفطانها الذهبي الذي كان ينعكسُ على لون شعرها. وأتذكرُ دموع عينيها.

آهٍ من تلكَ الذكرى البعيدة، التي بَدتْ الآن قريبة، قريبةً جدًا. واضحة كأنها تُعرَضُ بثًا حيًا في داخلي.

في غمرة السلام والحُزن في آن، أخرجني اهتزازُ جسدي على يد أحدهم. وعندما رفعتُ رأسي المُثقل. رأيتُ بأن يد رسول من كانت على جسدي. كان لقبهُ رسول لأن مُهمته إيصال المعلومات وتواردها. يحملُ ذاكرةً مُذهلة في دماغه. يُمكنها أن تستوعب أعلى قدرٍ من المعلومات.

"ما الذي يجعلكَ تنامُ هُنا".

كيف أمكنهُ أن يُلاحظ وجودي، أن يرى خَلفَ شَمسِ سعادتهم هذه الغيمة الماطرة هُنا. كيف أمكنهُ أن يراني!

أما ما يزيد ذهولي وألمي، بأنه يسألني وهو يعلم بأنني لن أتمكن من أجابته. آهٍ يا رسول، إن الكلمات تُطحن في داخلي. كيف لي جمعها وإخراجها لك. فكل ذاكرتك هذه لن تتمكن من أخذ معلومةٍ واحدة مني.

أمَسكني من معصمي وهو يأخذني إلى اجتماعهم الخارجي، اجتماع السعادة المبنيُّ على الدم. كانت الدموعُ لا تزال نديَّةً في عينيَّ، كما هي عيون أختي التي رافقتني.

جَلسَ وأجلسني بجانبه، بين عدة رجال كُنتُ الطفل الوحيد. لم يكُن تميُّزًا . ولن أخدع بهذه الكلمة بعد اليوم. فإن الكلمات سمومٌ بطيئة. كُلما صدقناها وهي كاذبة فإنها تنتشر في الجسد حتى تقوم بإضعافه ثم إبادته.

لستُ مميزًا. أنا رضا، فقدتُ عائلتي في يومٍ واحد، أشارك قاتليهم في حياتهم.

أشارك ضعفي على الملأ وأشعرُ به يكبر.

عجزي الذي هو نقطة ضعفي، والذي أنقذَ حياتي من الموت.

ألم يقل والدي ذات يوم:

" أنتِ تبكين هُنا يا أم رضا، وتشتكين صَمتَ ابنك. قد يُساعده صمتهُ يومًا ما، لا تعلمين أيَّ مُعجزةٍ قد تحصل".

لا يُمكنني إلا أن أصدق كلام والدي، فقد كان صمتي هو نجاتي من الموت. لكن أي نجاةٍ يا تُرى، وأي نقطة تحوُّلٍ حصلت لي مُنذ ذلك الحادث.

ما الحكمة يا والدي من هذه الروح وهذه النجاة، عُد يومًا من الموت وأخبرني.

كُنتُ أجلس بجانب حليم. الذي كان يُكمِلُ لهم عمَّا يريدون القيام به.

كان يَذكرُ أسماء أشخاصٍ لم يكونوا معنا، لهذا أدركت بأنهم منتشرون في كل مكان. قد لا يلتقي الجميع ببعضهم البعض. لكنهم مُتفقون كأنهم خرجوا من رحم امرأة واحدة. ولم أجد أعجب من اتفاقٍ على الموتِ كهذا!؟

وأنا أشاهدهم من مكاني الصغير هذا، أرى حماسهم لامتلاك أكثر الأماكن، لإيصال رسالة رُعب تُعطيهم ما يريدون. تذكرتُ حماس والدي لامتلاك المنطقة الجبليةً. شُعلة الأمل التي كانت تُنير قلبه كُلما وقف أمام المحصول يشاهده وهو ينمو.

كان مُستعدًا للتضحية بحياته التي ضحَّى بها فعلاً من أجل هذه الأرض.

أيكون هذا مُشابهًا إلى حدٍ كبير! الذي يجعل البشر يفعلون كُل شيء وأي شيء للحصول على ما يريدون.

أيمكن لأحدٍ أن يضحي بحياته أو حياة من حوله لأجل هدفٍ يريد الوصول إليه!

حصل ذلك فعلاً، ولو لم أخرج لما علمتُ بأن هذا العالم الذي تُقت للخروج إليه مُخيفٌ إلى هذا الحد، أكثر مما كان والدي يقول عنه. وأكبر من تلك الكوابيس التي كانت تحتلُّ حياتي.

ربت حليم على كتفي وهو ينظر إليهم:

"والفتى المدعو بروكا سيكون معنا".

رضا أنا رضا. لم يسمعني أحد.

لكن هذه الجملة التي لم أدرك معناها أحدثت جلبة بين الموجودين. خَرجَ صوتٌ يقول:

"أنا أحذرك، يُمكنني التنبؤ جيدًا بأن هذا الطفل الذي تريد الوثوق به سوف يقودنا للهلاك".

ضحك البقية حتى كادت ضحكاتهم تُعانق السماء، فهمتُ سبب ضحكهم عندما أجاب حليم:

"هل تُدرك ما تقول، كيف يُمكن لطفلٍ أن يكون هلاكنا. ونحنُ قد هزمنا أقوى الرجال وأشدهم".

رد رسول بتهكُّمٍ بالغ:

"وعندما تقول بأنه طفل، فهذه الكلمة تكفي بأن تتراجع عن قرارك. ما حصل في المرة الماضية قد نجح. لكن هذا ليس نموذجًا لما سيحصل في المستقبل. ألا تؤمن بالمعجزات. وإحداها أن يتكلم هذا الطفل".

يتكلمون عني كأنني لستُ بينهم، يقولون عن مُعجزةٍ مُستحيلة. يُثَّبتونَ الذنب على أكتافي، والذنبُ ثقيلٌ جدًا. لا أستطيع حمله.

صمتوا جميعًا لبرهةٍ من الزمن شعرتها طويلة. قَطعَ حليم الصمت:

"إن الأمر لا يرتبط بالصمت أو الكلام، إن هذا العالم كان صامتًا مُنذ البدء لهذا كانت علينا هذه المُهمة الصعبة والكبيرة بالمطالبة بحقوقنا. نحنُ نمتلك الإيمان وهو ما سيجعلنا ننتصر الآن

وفي المُستقبل. وإيماني هذا يجعلني أرى ذكاء بروكا وفطنته. يُمكنني أن أرى هالة النور التي تُحيطه، سيكون معنا ويتعلم من الجميع ما يستطيع فعله".

التفت إليَّ ثم ابتسم تلك الابتسامة الودودة التي يُشعرني بها أنني ابنه:

"أريدك فتاي، ستكون معي".

وهكذا أصبحتُ عيونًا لهم وأصبحوا صوتًا لي.

جعلني أتوقف عن العمل في المنازل ومُساعدة الجميع. جعلني أرافقهم أينما ذهبوا، لكن هذه المجموعة التي كُنتُ أرافقها كانت مسؤولة عن التدريب والتخطيط. فلم أشاهد دمًا أبدًا ولا أشلاء مُقطَّعة. لكن الأمر لن يستمر.

كُنتُ طفلاً مُطيعًا، هادئًا لأن لا صوت لي. تراهن الجميع وانقسموا لقسمين، الأول بأنني سأكون ذكيًا ومُفيدًا ومُقاتلاً يُدافع عن أرضه وحقه. والثاني بأنني سأكون دمارهم وهلاكًا لهم.

وأنا رضا؛ لم أكن أعلمُ من أنا.

هل أنا بروكا ذلك الصامت المُقاتل الذي سيكون كما يريده حليم، أم رضا الذي سيعود لأحضان عائلته ينتقم لموتهم. كُنتُ خاليًا من المشاعر، غريبًا عن نفسي. لا أستطيع ترجمة ما أريد، حتى ذلك الخوف الذي كان يَقضُّ مضجعي لم يعد موجودًا. عُشت لا شيء لا شيء تمامًا.

لكن هناك دومًا جزءًا فاصلاً لا تعود معه كالسابق، ويتلوه جزءٌ آخر يتأكد من إنهاء الجزء السابق منك تمامًا.

بدأت القصة عندما بدأ أحدهم بالاقتراب مني، لم أذكر في بداية وجودي معهم وجوده. حتى في الأوقات التي يجتمعون بها كان صامتًا مثلي تمامًا. لكنه بدأ يتغير ولا أذكر تمامًا متى بدأ الأمر.

بعد مرات عديدة من مساعدتي في أمور بسيطة كأن يجد لي مكانًا أنام فيه، أو طعامًا شحيحًا أعيشُ عليه، كان من صدفة هذه الليلة أن أنام في منزله المهجور والذي لا يأوي سواه. وضَعَ لي فراشًا دافئًا، والقليل من الطعام.

من معجزات هذه الليلة أنني سمعتُ صوتهُ أخيرًا بعد أن كُنتُ أظنه بروكا آخر. جلس بجانبي وبدأ يقول بصوتٍ يملؤه الأسى:

"لا تظن أبدًا بأنك الوحيد؛ بعض الأشخاص يمتلكون القُدرة على الكلام لكنهم لا يتكلمون، منهم أنا".

مَسحَ على وجهه وهو ينظرُ إليَّ وعيني مدهوشتين من كلامه، أكمل:

"هل خَرجَ صوتي الآن لأنك عاجزٌ عن الكلام؟ هل أريد أن أرمي ثقل قلبي لأحد لن يتمكن من بيع قلبي؟ في الحقيقة لا أعلم. لكنني أشعر بأنك لو كُنت تتمكن من الكلام، لبحتُ لك أيضًا".

تنهد: "إن قلبي مُثقل".

نكسَ رأسه: "لا قُدرة لي على التحملِّ، كُلُّ هذا الصمت الممتلئ بالكلام. كُلُّ هذا الألم الممتلئ بالدم".

كان يونس شابًا في مُقتبل العمر، يحملُ جسدًا صغيرًا ونحيلاً برأس أصلع، وصوتٍ هادئ كأمواج البحر وقت الغسق. ذكَّرني يونس بأولاد عمي، وبذلك الشاب الذي عمل لدينا في المزرعة لمدة شهرين متتالين. كان هذا الشاب قادمًا من مدينة البُليدة، يحملُ في هاتفه صورًا فائقة الجمال لساحة التوت، في إحداها يجلس ويُحيطه الحَمامٌ من كل مكان، أخبرني بعد أن لاحظ اهتمامي بهذه الصور بأن ساحة التوت تتوسط مدينة البُليدة ويعود تاريخها لعام 1820م.. كان يُخبرني وأنا أشعر بروحي تُحلِّق إلى ذلك المكان الذي يجتمع فيه الناس والأطفال للعب.

كان قدوم هذا الشاب لأجل إنجاز أبحاثه حول الأرض، يدرس التربة وكميات المياه المُناسبة ويكتشفُ أساليب جديدة للزراعة. يُمكنني تذكر شُعلة النشاط التي كانت تُحيط جسده، كأنما كان يمشي على الضوء وتنمو المزروعات تحت قدميه. نَشرَ البهجة في الجبل بشكل مُلفت. أتذكر حقيبته السوداء التي كُنت أحملها معه مجاورًا خطواتٍ قدميه، أنظرُ ليديه اللتين تُشيران وشفتيه اللتين تسردان قصصًا كثيرة لم يملَّ من إخباري بها.

لاحظ اهتمامي بكل ما يفعل وما يخرجُ بوحًا من شفتيه. نظرات عينيَّ صباحًا عندما كُنتُ أقفز من مكاني كُلما خرج من منزل عمي. مُنتظرًا شغوفًا بتعلم المزيد. كُنت أرى بكلماته عالمًا جديدًا .

يُمكنني تذكر معارضة عمي وأولاده من وجود هذا الغريب بيننا. وكان ناصر يُفرغ جام غضبه لأصغر الأمور منذُ قدوم هذا الشاب. لكن والدي كان يُريد مصلحة الأرض والمزرعة كما كان يقول لوالدتي كُلما يلتقي بها بعد يومٍ شاق.

توالت المشاكل في الاحتفاظ به أم طرده من الجبل. لكنه بقي إلى حين، إلى أن حَلَّت المصيبة.

وكلمة عمي لم تُفارق أذني الآن، عندما قال:

"إن الغرباء يبدأون بقبول أي شيء، ثم يطمعون بامتلاك كل شيء".

لم ينتظر إجابة والدي، بل خرج بعد صمتٍ قاتل. ليتذكر والدي هذه الكلمة بعد شعوره بندمٍ كبير لدرجة أن جِلدَ جسده تجعدَّ كجذر شجرةٍ ميتة.

أما يونس، هذا المُرافق الجديد. بل الصديق الأول. كان يتقرَّبُ مني كتلك الفراشة التي تقترب من النور. ولا أعلم أي نورٍ رأى بداخلي وأنا مُنطفئ.

كان يونس أبًا لطفلين، أحدهما في سن السادسة والثاني ذا العقدين. كان يتكلم عنهما كأنهما الآن سيفتحان الباب يُطلان عليه يُقبّلانه، وثغرهما الباسم يُعيد روحه إلى جسده. كان يتكلم عنهما كما لو كانا الآن نائمين ينتظرُ الصباح ليوقظهما على قبلةٍ صغيرة تُزين خديهما. وأنا أيضًا كُنت أنتظر الطفلين كُل يوم. حتى أتى ذلك اليوم الذي جعلهُ ينفجرُ باكيًا وهو يخبرني بأنه فقدهما للأبد. وأن وجه أسامة وعينا عمر لا يتُركانه.

وبعد أن هززتُ يدهُ مرارًا لينظر إليَّ، أخبرني بأن ذلك حدث من شدة الفقر الذي كانت تعيشه عائلته. حيثُ بدأ الجميع يأكل كل شيء من الجوع. سلبوا وتقاتلوا وقتلوا. ثم حدثت الفاجعة عندما

كان خارجًا من البيت يبحثُ عن أي مصدرٍ للدخل يُطعم عائلته من خلاله. أخبرني كيف كان يحمل الخبز وبعض الأطعمة بين يديه، يشعرُ من خلال هذه المؤونة القليلة كأنه انتصر على الموت ليهب الحياة لعائلته. كأنه يملك كنوز الدنيا في طعامٍ قليل.

كان منزله هادئًا عندما أقترب منه، فقد أعتاد سماع أصواتهم قبل أن يدخل. لكنه لم يستغرب ذلك كثيرًا ولم يتنبأ قلبه بمصيبة، لأن الجوع يسلب الطاقة ويخمدُ إشعاع الأجساد حتى تنطفئ.

لكنهُ شَعرَ بجليدٍ يسري في جسده عند أول خطوةٍ للداخل. أشعلَ النور وتقدَّم أكثر ليشاهد عائلته تنام على فراشٍ واحد. زوجته تحتضن كلًّا منهما على جنبها.

كان اليأس أسرع من قطعة الخبز في يده، كان الجوع أقوى من خوفه عليهم. وهذا اليأس الذي جعلَ زوجته تتخلى عن حياة أبنائهم وحياتها. لكنهُ يتساءل أمامي ألف مرة. لماذا؟ لماذا لم تأخذه معها! ألم تفكر ما الذي سيحصل له بعدهم. من سيجيبه يا تُرى؟ من سيجيبنا يا يونس. فالراحلون لا قدرة لهم على الإجابة. ولا حقَّ لنا بسؤالهم، مهما قتلنا التمني.

يقول يونس:

" لم أسرق لأجل إطعامهم. ولم أقتل، لماذا عليَّ أن أتحمل كل هذه العقوبة. أين العدل أخبرني؟".

نشجَ كثيرًا وهو يُحاول أن يمسك رأسه من الألم، اغتسلَ بدموعه إلى أن أعياه التعب وأرهقه التفكير. أكمل يقول لي:

"كُنتُ أتخبَّطُ بالعتمة، كأنني فقدتُ عينيَّ فجأة. أريدُ الانتقام وأنا أحمل بجسدي نارًا لن تخمُد إلا بالدم".

وعندما ذكرَ الدم عادت عيناه تُغدقان المزيد من الدموع، عينان تُخبئان الجمر فيهما. بلون الدم تشتعلان، كأن الكلمة تحوَّلت لونًا في عينيه.

" أخبرني؛ من سأقتل انتقامًا؟ دمُ من سَتخمِدُ النار في داخلي؟".

" كما أنت الآن تمامًا، أنا أيضًا. لا نملكُ إجابةً يا بروكا، إن الصمت سيملأ العالم ذات يوم. ولن يتكلم أحد، لن تكون لديهم القدرة على الإجابة.

ظننتُ بأنني أصبحتُ شجاعًا عندما قررتُ الانضمام إليهم، لكنني أدركتُ بعد أن هدأت ثورة الانتقام بداخلي ، بأنني كُنتُ جبانًا. وأنا أجبن من أن أواجه حُزني وحدي".

لم يجد بداخلي النور، بل وَجدَ نفسه. رأى الضعف الذي يسكن قلبه مرسومًا في ملامحي.

"قتلتُ أبرياء، أنا أحملُ دماءهم جميعًا في رقبتي. كان حريًّا بي دفن عائلتي والبكاء عليهم. أن أنتظر موتي واللحاق بهم، لا أعلمُ الآن كيف يُمكنني مُلاقاتهم .أشعرُ بأن جهنم ستكون مأواي ولن أراهم أبدًا".

ما الذي يجعلُ شخصًا نادمًا إلى هذه الدرجة يُكمل سيرهُ معهم، لكن كلماته التالية كانت إجابة كافية على تساؤلي:

"لقد أصبحتُ متورطًا معهم، لقد غُصتُ بالوحل لدرجة أنني لا أستطيعُ إخراج نفسي منه. لن يدعوني وشأني. سيتهمونني بالخيانة ثم يعذبوني. وإذا كانت لديهم القليل من الرأفة سينهون حياتي".

كان يومًا شاقًا كما قال لي يونس:

" الحياه صعيبة يا بروكا، علاش نعيشها".

شعرتُ بألمٍ في رأسي، كأنه ينشقُّ إلى نصفين. لم أتمكن من النوم لعدة ليالٍ بسبب ما كُنتُ أسمعه من يونس. عاد إليَّ ذلك الإحساس، كأي بشريّ ولِدَ طاهرًا يملكُ قلبًا في جسده ويشعر.

ذهبتُ معهم بعد عدة أيام إلى مكانٍ جديد، كان عبارة عن حفرةٍ تحت الأرضُ فوقها يتراكم العديد من جذوع الأشجار فهمتُ منهم أنها إحدى الحصون لتُخبَّأ بها المؤونة والأسلحة وكميات من الأدوية وتُسمى (الكازمات). وقف حليم بجانبي ومعنا ثلاثة رجال ثم همس لي دون أن يسمعهُ البقية:

"أتريد أن تتعلم حقًا. هل لديك الرغبة الكاملة؟".

أهتز رأسي بالإيجاب. ليس رغبةً بالتعلم، بل أنني لم أعد أعلم ما أريد.

أكمل يقول لي:

"هذه الحصون، لقد قمنا بتهيئتها منذُ زمن طويل. جميع الرجال معنا لا يعلمون كيف بدأ الأمر. إنهم يريدونً شيئًا مُختلفًا

عمَّا نُريد، لكن النتيجة واحدة. لن تفهم ما أقوله الآن، لكن عندما تُرافقني لسنين طويلة. ستفهم كل كلمةٍ كُنتُ أخبرك بها".

كانت الكازمة تحتوي العديد من الأسلحة، منها رشاش كلاشينكوف وقنابل يدوية وكميات كبيرة من الذخيرة.

عُدنا إلى القرية بعد أن سَكَن الليل ونام الجميع، لم أر يونس اليوم. لكنني وجدتُ غرفةً لدى أحدهم ونمتُ وحدي. كان التفكير في هذه الليلة أقوى وأصبح وشاح الليل خانقًا لم أتمكن من النوم أبدًا. الأفكار تتناوب بضرب رأسي حتى كاد ينفجر. وبعد أن انتصف الليل سمعتُ صوت جلبةٍ في الخارج. أخرجتُ جسدي من النافذة لأستطلع ما يحدثُ في الخارج. كانت النافذة مُنخفضة لهذا أخرجتُ نصف جسدي. فشاهدتهم جميعًا ؛عدة رجال يشكلون دائرةً ويبدو من أجسادهم التي تنزل وتصعد بأنهم يضربون أحدًا ضربًا شديدًا.

تساءلت من هذا المسكين الذي ينال كُل هذا الضرب، وما الذنب الذي اقترفه ليستيقظوا في هذه الساعة لعقابه. أمعنتُ النظر أكثر، أخرجتُ جسدي أكثر حتى رأيتُ البقية يبتعدون ليقف أحدهم ويسحب الرجل من قدمه يريد إدخاله إلى المنزل المُقابل لهم.

وفي اللحظة الأخيرة، في الجزء الأخير من جسده، رأيتُ رأسه.

يونس!

(6)

تموز 1993

لون الموت

"كم مرةٍ يتحوّل الموت لصديقٍ حميم
نشتاقُ عِناقَه.."

سَرَتْ الرعدةُ في جسدي عندما رأيتُ رأس يونس، وجسدهُ يُجرُّ على الأرض.

ركضتُ إلى الباب بأسرع ما يُمكن لقدميَّ، تزاحم الجميع أمام المنزل ولم أتمكن من رؤية يونس في الداخل، راوغتُ بجسدي كثيرًا لكنني لم ألمح منهُ طرفًا. قلبي يُرفرف فزعًا وجسدي يهتز بسبب أنفاسي المُتلاحقة التي لم أتمكن من ضبطها.

إلى أن دخلَ الجميع ووقفوا حوله، تمكنتُ من رؤية يونس مُلقىً على الأرض، لا قُدرة له على تحريك أصابعه. وأحد جفنيه يهتزُ بشكل متتال ومُخيف كأنه يقاوم الإغماض الأخير. والدماء تمشي خطًا مِن أعلى رأسه مرورًا بعينه وانتهاءً بخده. كانت رؤيته كفيلة بزرع الرُعبِ في قلبي، حتى لو كان شخصًا لا يمتُّ لي بصلة، فكيف لو كان يونسَ. هذا المتألم الذي كان يُشاطرني حُزنه رُغم صغر سني.

اهتز جسدي عندما صرخ أحدهم:

"هذا الخائن، من الجيد أنني اكتشفتُ الأمر قبل أن يصل إليهم".

بدأت الأصوات تتناوب، وما تمكنتُ من سماعه:

" يجب أن نكسر رأسه بعد تعذيبه".

"علينا أن نُعلِّقه أمام الملأ، ليكون عِبرةً للجميع".

"هذا الخائن".

تجاوزهم حليم، ليقف أمام جسد يونس، يُشهر سلاحه وهو يقول:

"لن نقوم بتعذيبه، يجب أن نُنهي الأمر في هذه اللحظة".

وهو يلتفتُ إلى وجوه الجميع ليُكمل كلماته، تَمكنَ من رؤيتي واقفًا أمام الباب، ذاهلاً أرتجف.

مَسحَ على لحيته قليلاً قبل أن يُشير إليَّ بالاقتراب منه، فاقتربتُ مُذعِنًا خاضعًا.

وعندما اقتربتُ بخطواتٍ مُترددة فأصبحتُ قريبًا منه وضعني تحت كتفه، وظللَّ عليَّ مثل جنحانٍ لكنها لم تكُن ملائكية. بدأ يلوِّح بيده المُمسكة بالسلاح باتجاه يونس، الذي لم يمُلك حولاً ولا قوة.

قال بصوتٍ واضحٍ وآمر:

" إن فتاي سيقوم بإنجاز المُهِمة. في هذه اللحظة سأثبت لكم مهارات طفلي".

ارتجفتْ عظامي فاهتز جسدي على إثرها، شَعرَ حليم بجسدي المُلقى بأحضانه كرأس مُعلَّق في مشنقة. لكنهُ تجاهل ما شعر به، وأكمل يقول وهو ينظرُ فيَّ عينيَّ:

"أنا أعلمُ بأن يونس قريبٌ إليك جدًا، لكنني لا أستطيع تمالك نفسي الآن من إخبارك بأن يونس كان السبب في مقتل عائلتك، وهو الذي قام بأخذنا إلى ذلك الجبل".

هَمسَ في أذني بعد أن جَحظتْ عيناي:

"سأعطيك اليوم فُرصة الانتقام".

فَتحَ يدي ثم وضع السلاح فيها، تدافع أحدٌ ما خلفي فوقعت عند رأس يونس.

شَعرتُ بأن رأسي أصبح كيسًا مليئًا بالقاذورات، ثقيل لكن لا قيمة له. ازداد الألمُ أضعافًا، وشعرتُ كأن المكان الذي وقعتُ عليه في رأسي قد عاد إلى الانشطار. حاولتُ أن أنهض بعد أن اتكأت على كلتي يديَّ، لكنه أمسك بيدي فهويت أمام وجهه مما جعلني أشعرُ بأنفاسه القريبة من وجهي. قال تلك الكلمات المُغلفة برائحة الموت. من روحٍ تحتضر:

" لا تفعلها أنت، لا..".

أفلتَ يدي بعد أن عَجزَ عن إكمال كلماته، وقفتُ بجانب حليم،

إلا أن نظرات يونس كانت مُسلطةً على وجهي، كأن عينيه تُكملان ما يُريد قوله. لم أشعر بأنه خائفٌ من الموت. بل كان خائفًا من الحياة.

بدؤوا جميعهم يتكلمون، لا أميز كلماتهم من أصواتهم، يزدادُ الطنين في أذني كأن خلية نحل دخلت فيها. أمسكَ حليم يدي وهو يوجه السلاح إلى رأس يونس، تمكنتُ من سماع كلماته يقول لي:

"سأقوم بتوجيه الهدف، وأنت أطلق النار عليه".

طنينٌ في أذني، رأسي سينفجر.. نفذَ الهواء من رئتيَّ، عيون يونس ما تزالُ مُعلقةٌ بي، فتعود صورة أجساد عائلتي وهي تفرشُ الأرض بدمائهم. والنار التي تأكلُ المحصول.

نعم؛ لقد عادت إليَّ تلك الذكرى. كان يُمسك جسد عمي يصوِّب السلاح في وجه والدي. تذكرتُ شرَّ عينيه. وصلابة يديه اللتان لم ترتجفا وهو يُطلق النار. آهٍ من ألمي الذي يعود للحياة الآن.

أنا الآن أتذكرهم جميعًا. عدتُ ذلك الطفل في تلك الشاحنة. أمي! ويونس!.

في نفس اللحظة التي تذكرتُ بها تلك الرصاصة التي اخترقت جسد أمي. لحظة تهاوت بها الأجساد إلى الأرض وصَعدتْ الأرواح إلى السماء. رأيتُ من بين كل هذه الذكرى القاتلة . رأس يونس قد انفجر تحت طلقةٍ من سلاحي.

هُناك حيثُ قتلهم، وهُنا حيث قتلته. وفي كلا الحالتين أنا أتألم.

انتفضتُ كالطير الذي وقع في الشباك، تلقفتني يد حليم يشدُّ على كتفيَّ سعيدًا مُتباهيًا، وارتفعت أصواتهم احتفاءً بالنصر.. يهللون ويصرخون.

سقطَ رأسي بين يديَّ؛ لقد جعلهُ الألم ينفصلُ عن جسدي.

هو ذهب إلى حياةٍ أخرى.. وأنا تلونت بلون الموت.

أنشقَّ الصباح ودخل النور إلى البيوت، إلا قلبي بقيَ مُظلمًا. عاد الجميع لمساكنهم يتمتعون بدفء الفراش وبنوم هانئ. أما البرد فقد ترك الأرض واجتمع في جسدي. لم تصل حرارة الشمس إليَّ. ولا أعلم من أين يأتي كُل هذا البرد. وضعتُ رأسي بداخل غطائي. أسرعتُ وتيرة أنفاسي إلا أن عظامي بقيت تدقُّ دقًا.

كلمات آية تعود إليَّ ذات يوم عندما كُنت ملتصقًا (بالطابونة):

"هُناك نوعان من البرد يا رضا، ذلك الذي يأتيك من الخارج تبعًا لحالة الطقس ويمكنك أن تحمي نفسك منه بأكثر من طريقة. لكن إن جاءك البرد من داخلك. فلن تستطيع للدفء سبيلا، ابذل كل جُهدك كي لا يبرُدَ داخلك يا حبيبي".

ضَحكتْ أختي عندما لاحظت بأنني لم أفهم شيئًا. أيا آيتي، لقد برد داخلي، عودي الآن وأخبريني كيف يُمكنني تجنبه. هذا البرد الذي استوطن في داخلي.

حلَّ صباح اليوم التالي، شعرتُ بحمَّى شديدة كادت تقضي عليَّ. أمدوني بالغذاء اللازم والدواء المُناسب. يريدون لي الحياة لأحمل أعباء الكون فوق قلبي.

لم أستطع التمييز بين الواقع وهذيان تلك الحُمى، فقد كُنت أرى حياتي في الجبل. ضحكات أمي، لعبي مع كلبي شاهق، الجبل الأخضر، تارةً أسمعُ صوت والدي يُناديني لأذهب معه إلى السوق،

فأشعرُ بأنني أريد النهوض تلبيةً لندائه. ضحكات آية بعد كلام تقوله فيضحكها، ناصر يطلُّ من شقِّ الباب يحتاجُ مني أن أساعده.

كُنت أرى بين هذا كُله فتاةً تضعُ على رأسي الكمادات، وتارةً تناولني الدواء. ثم أعود؛ أعود للجبل مرةً أخرى.

وفي اليوم الأخير من مرضي، تمكنتُ من التمييز. فقد كان ذلك الهذيان ما أتوق إليه. ولم يُكن سوى جهنم واقعًا لي.

كان جسدي واهنًا إلا أن أدراكي عاد لنشاطه. نظرتُ لتلك الفتاة التي أستمرت في مهمة علاجي. قد تصغرني قليلاً. جسدها نحيل وعيناها سوداوان. أما شعرها المُخبأ تحت حجابٍ أظهر قليلاً منه فكان بنيًّا.

قالت لي عندما استفقت:

"لقد زال البأس، أنت الآن بخير".

اغرورقت عيناي. لم تتحرك تلك الفتاة إلا أنها بعد حين اقتربت أكثر وهي تقول:

" لا تبكِ، يُمكنني مساعدتك".

مَسحتُ دموعي بباطن كفي وهززتُ رأسي بالإيجاب.ابتسمَتْ تلك الفتاة، وأنا ابتسمتُ أشقُّ مجرى الدموع التي لم تتوقف.

يا ليأس نقطة الفرح في وسط بحارٍ من الألم، و يا لقوة هذه النقطة في جوف عطشان.

وأنا عطش، عطشٌ جدًا.

(7)

آب 1993

في المنتصف

بسبب تداعيات مرضي، لم أتمكن من الخروج لفترةٍ طويلة لأستعيد عافيتي. وهم استمروا بالعمل والعودة أحياناً بعد مُنتصف الليل. أسمعُ صوتَ سياراتهم وهي تصطف.

لهذه الفترة الخارجة عن المُعتاد، سرقتُ قليلاً من طفولتي الموءودة. حتى كُدتُ أنسى بأي مكان أنا أعيش. وبأن الصحراء تحتوي رمالاً مُتحركة قد تبلعني بأي لحظة. بقيتُ أعيشُ السراب كما لو كان واقعًا.

وكانت من رحمة الله أن أرسل لي "رحمة". هذه الفتاة التي استمرت بعلاجي ومساعدتي. لم يكُن الأمر يقتصر على ذلك. فقد لاحظتُ بأنها مُختلفة عنهم جميعهم. وإن كُنت لم أرها سابقًا فهذا لأنها تعيشُ بقوقعةٍ وحدها. كأنها لا تعلمُ ما الذي يحدثُ خارجًا ولكأن الأمر لا يعنيها.

لكنها أدخلتني هذه القوقعة وجعلتني أعيشُ عالمها بأكمله، أخذتني لمكانها السريّ الذي لم يعلم به أحد. كان خلف خطٍ من

أشجار السرو، كوخٌ صغير مهجور مُلك لعائلتها لكنهم لم يعودوا بحاجته.

ثم علمتُ لِمَ اختارت رحمة كُل هذه العزلة. فقد كان هُناك شريك لها فيها، تُخبئه عن أنظار الجميع كي لا يمنعونها عنه. تلوذُ بالفرار لكي لا يُدرك أحدٌ وجوده. فيسلبونه منها. كان هذا الغريب هو "القراءة".

كانت الشمس تتوسط السماء كما لو كانت تملك عصًا طويلة تضربُ بها رؤوس الناس. لهذا كان الجميع يبحثُ عن أماكن الظل. أما أنا ورحمة فقد كُنا نمكثُ بالساعات في هذا الكوخ. ولحُسن الحظ لم يلحظ أحد اختفائي بسبب المرض. ورحمة التي يعتاد الجميع على اختفائها.

وذات يوم قائظ، أخرَجتْ رحمة كُتبها من تحت طوبةٍ كانت تُخفي كل ما تملك تحتها. تُخرجُ الكتب في أوقاتٍ ثم ترجع لإخفائها. لكنها لم تُخفِ أي شيءٍ عني.

كان الكوخ صغير. ذا خشب مُتهالك يُصعَدُ إليه من خلال درجةٍ واحد من الطوب، وفي الداخل كان فارغًا إلا من بعض الأخشاب التي كُنا نجلسُ عليها لأوقاتٍ طويلة.

أمسكتُ إحدى كُتبها. التي أخبرتني بأنها تمكنت من امتلاكها من مكبٍ للنفايات. كانوا ينتظرون إحراقها. لكنها سارعت بأخذ هذه الكتبَ ليلاً. مُقاومةً الظلام والخوف والبرد لأجل الاحتفاظ بهذه الكتب التي لاحظت وجودها نهارًا لكن معها العديد من الأشخاص مما منعها من الاقتراب أكثر.

تمعنتُ بالكتاب الذي يرقدُ بين يديَّ، فتحتُ صفحاتٍ عديدة منه. فرأيت صورًا كثيرة وحروفًا تتصل ببعضها البعض بشكل مُبهر. لم يَجلبْ أي أحد كُتبًا إلى المزرعة. حتى ذلك الشاب المُتعلم لم يُرني كُتبه التي كان يسهرُ عليها ليلاً على ضوء المصباح.

رأيتُ كم أن هذه الحروف التي تتمكن رحمة من فهمها بسهولة لغز مُحيِّر بالنسبة لي.

أشعرُ بأنها ظل لضوءٍ مُتحرك. لا يُمكنني إدراك الضوء ولا الظل. تمكَّن الفضول من التربُّع في عقلي. كيف يتمكن البشر من فكِّ كُل هذه الرموز. كيف لهم إدراك معنى هذه الحروف. لماذا أنا فقط لا أملك هذه القُدرة؟

كيف تمكَّنت رحمة من قراءة كُل هذه الكُتب، وأنا هَهُنا عاجزٌ عن نطق حرفٍ واحد.

أحرقتني الحسرة، وتأوهتُ الألم بداخلي إلى أن بلغني الحُزن الشديد. رُغم أن هذا الألم يجب أن يكون بسيطًا أمام كُل ما خسرته. لكنني لا أستطيع التحكُم به. لا يُمكنني تجاهل كُل هذا الضعف أمام كُل هذه المقدرة. استمررتُ بمراقبتها وهي تقرأ. حَرَكةُ شفتيها وعينيها اللتان تتبعان الكلمات.

لم أكن أدرك بأن الانكسار الذي احتلَّ قلبي قد ظَهر على وجهي. فقد لاحظتْ رحمة ذلك بعد أن باغتت وجهي بنظراتها .

تَوَقفتْ رحمتي عن القراءة. ثم نَظرتْ طويلاً في عينيَّ. طويلاً! ولأن لا حيلة لي على النُطق أو سؤالها عن هذه النظرة الطويلة. فقد انتظرتُهَا لتخبرني بما تُفكر. وبالتأكيد لم تكن تنتظر سؤالي.

قالت بعد أن وَضعتْ الكتاب في حُجري:

"بالتأكيد أملك قُدرة الإحساس. أن أشعر بتلك الأماني المُعلقة في عينيك".

اقتَرَبتْ وهي تضعُ يدها فوق الكتاب:

"لم أؤمن يومًا بكلمة مُستحيل، لهذا كُنت أناضل لأتغير. أن أقاوم رغبة الاستسلام والخنوع للواقع. لهذا سأقوم بتعليمك. سوف اقرأ لك الكُتب وأعلمك كيف تُكتب الحروف. كُل يوم، أعدك".

جُبِرَ الكَسرُ بتلك الرحمة. وضُمِدَ الجَرحْ.

فُتِحَتْ النافذة الوحيدة في مَسكني المُظلم، فدخلَ النور ليطرد غياهِبَ الظُّلمات.

أحيتني رحمة بالكُتب؛ فعلمتُ أن خارج هذا العالم، وخارج هذه الهاوية يرقدُ عالمٌ آخر. يعيشُ به بشرٌ آخرون يختلفون تمامًا عن عالمنا. هذه العوالم تنحصرُ بين دفتيِّ كتاب. لكنها تحتلُّ الأرض بأكملها. قرأت لي رحمتي قصصًا وروايات وكُتبًا جُغرافية وعلمية. شاهدتُ صور أماكن أخرى. وبلادًا تملكُ العجائب.

وفي نهاية اليوم. عندما يحضرُ الليل فإن الحروف تتراقصُ أمام عينيَّ في أعلى سقف المنزل. أشاهدها تسبحُ في فضاءٍ أسود كما لو كانت نجومًا. أحاول التقاطها وجمعها. لكم كان صعبًا ذلك، مهما حاولت.

لا أعلم كم يُمكنني قياس صعوبتها. لكن؛ قد تكون بِمقدار هدم

عشرة جبال، وإعمار آلاف المنازل. ذلك الجهد الذي كُنتُ أبذله لكي أتعلم حرفًا واحدًا، كان ذلك بسبب رأسي. آهٍ من ذلك الحادث. وهذا العطب!

أما رحمة فكُلما كانت تُشاهد رايات اليأس تُحلِّقُ في عينيَّ. كانت تقول:

"إن لم تؤمن بالمعجزات، فلن تراها. كُل معجزات العالم حَدثت بعد أن آمن بها أصحابها".

كُلما تذكرتُ كلماتها، أقاوم فِكرة الاستسلام. أريد أن أؤمن بهذه المعجزة كي تحصل. أريد أن أكتب واقرأ. تعويضًا لعدم قُدرتي على الكلام. أريد أن أعيش ألف حياةٍ بدل حياتي التي سُلبت مني . كانت رغبتي قويّة كما هي رغبتي بعودة الماضي.

تشرين الثاني

كان مرور هذه الأيام جميلاً، كالدواء الذي يُسكِّن ألم الجرح. لكن إن بقي الجرح مفتوحًا فعند انتهاء مفعول المُسكِّن سيعود الألم أقوى من السابق. تمكَّنوا من نسياني لعدة شهور أو أنهم كانوا يُحاولون مُكافأتي على تلك المُهمة الأخيرة التي تمكَّنتُ من اتقانها.

وفي مساءٍ سيء الطالع، عاد إليَّ حليم مُبتهلاً وهو يُخبرني بأنهم يريدون إكمال مهام أخرى يجب أن أكون على إطلاع بها لكي أتعلم أكثر. أخبرني بأن فَترة نقاهتي كما كان يُسميها قدً انتهت. انتهى النور. وفَسُدَ المُسكن. فعاد الألم أضعافًا.

طلبوا مني تحضير الشاي وتقديمه للجميع، يجتمعون في أعلى تل بعد أن انتصف الليل. يتشاركون ما يُمكن فعله لحل مُشكلة ما. كُنتُ أرتدي سروالاً طويلاً وقميصًا داخليًا أبيض. أشعلتُ النار ثم أخرجت من الحقيبة الجلدية إبريق الشاي وعبوة الماء. وضعتُ الشاي بأكوابٍ زجاجية صغيرة ثم قُمت بتقديمها إليهم وأنا أستمعُ لكلماتهم.

كان أحدهم مُغضن الوجه غاضبًا. يُرتلُّ كلماته مُنفعلاً. كأن دمه ما يغلي على النار. ففهمتُ من كلماته السريعة، أن أخاه يُريد الانضمام إلى الجيش. وبعد محاولاتٍ عديدة من هذا لم يُطع الآخر. احتدم الخلاف بينهما. تمكَّن الآخر من كشف هذا. فهدده بتسليمه للسلطات إن لم يتراجع عن تصرفه الأهوج. كان يُردد "يقول بأنني أفسد البلاد، يُخبرني بأنني مُخطئ، وأن العدل لا يتمُّ بهذه الطريقة. أخبروني ماذا أفعل، أنا أتوسلُ إليكم".

سمعتُ إجابة أحدهم بأن من يُعارض مهامهم، مصيرهُ الموت. وأن الذنب لا يلحقُ بهم. بل من معارضيهم.

أقنعوه رغم ارتجاف صوته وهو يقول أخي، قالوا له بأن أخاك سيُكفِّر عن ذنبه بالموت. أخبروه بأن هذا من أجل مصلحة الجميع، أنا الصامتُ هنا كُنت أعلم بأن كل هذا كذب.

لا أعلم ما الذي حصل في غيابي، لكنني كُنتُ حاضرًا عندما وَقفَ الأخُ الأصغر أمام أخيه الأكبر المُكبَّل على كُرسي ينظرُ بألم، كُنا بإحدى الكازمات المّوزعة في مناطق عديدة. نختبئ عن أنظار الجميع.

بكى الأكبر بكاءً يُقطِّع نياط القلب، يُمكنه تقطيع قلب ذئب جائع أمام فريسته، لكن الأصغر بقي واقفًا يتلو كلماتٍ حفظها جيدًا، صَرخَ الأكبر:

" أخي".

كان صوته مؤلمًا وعاليًا كما لو أن الأرض انقسمت لنصفين. فضاعَ صوته داخل الفوهة ليعود أعلى وأقوى بصدىً يملئ الأرض. وَقفَ الشعرُ في جسدي.

رغم كُل هذا، لم يشعرُ أخوه بألم هذه الكلمة.

لم يتقدم أحدٌ منهم. كانوا ثلاثة رجال ولم يكُن حليم معهم. وبعد الصراخ لم يتقدم أحد. كانوا واثقين بأن هذا سيحدث. لم يكُن لديهم أدنى شك بأن هذه الكلمة لن تؤثر بصديقهم. أن يُضحي أخٌ بأخيه، بكل هذه السهولة.

لكنني كُنتُ أنتظر. من غير المُمكن أن يفعل شيئًا لرجل عاش معه منذُ الطفولة، أطعمه بيديه ولعِبَ معه. ساندَه وقت ضَعفه ووقف أمام الجميع دفاعًا عنه. لا يُمكن ! إن دماغي لن يعي ذلك أبدًا. سيُهدده فقط ثم يعودان ليلاً إلى المنزل ينام الأصغر ليقوم الأكبر بتفقده قبل النوم. ثم يعودان صباحًا كأن شيئًا لم يُكن.

الأخ المُكبَّل لم يتوقف عن الصراخ، بالتأكيد لم يتوقع كهذا الفعل من فلذة قلبه، تخيلتُ لو أن ناصر فَعلَ ذلك بي، بل لا يُمكنني التخيلُ أبدًا.

أكملَ يقول بصوتٍ مُتقطِّع من شدة البكاء:

"أتريد قتلي! أنا أخوك، أنا قَلبُك، أنا ظهرك. أنا الذي يموت لأجل أن تحيا، وأنت أخي. أنجبتنا أمٌ واحدة، أيُمكنك التخلي عني! يا أخي".

ردد طويلاً آخر كلمة.

نكسَ رأسه ونَشجَ حتى خرجتْ المياه منْ كُل رأسِه، لهُ عينا حَمل وديع واستدارة وجهٍ ملائكيه، وشعرهُ البنيَ المُنعكس على لون عينيهً اللتين تحولتا لبحرٍ بنيٌ كبير. يا لحجم هذا الجمال المنغمسِ في الألم!؟ وفي اللحظة التي رَفعَ بها رأسه لتلتقي عيناه بعيني أخيه.

كانت النظرة الأخيرة.

شهقت أنفاسي مع شهقته الأخيرة. ركضتُ حتى خرجت من المكان كله، وصعدتُ إحدى سياراتهم. نسيتُ لذة الكُتب ورحمَةِ رَحمَة، نسيتُ أنني مُجرد طفل فقدَ عائلته. وبقيَ صُراخ الرجل في أذني يزداد، يزداد . أغلقُ أذنيَّ لكن الصوت يُصبح أعلى.

" أخي، أخي، أخي".

في ظل ما عشته، يمُكن أن أعتاد القتل، رؤية الدماء والموت . إلا أن يقتل أخٌ أخاه، آهٍ وألف آهٍ لا أستطيع أخراجها من صدري.

كيف يُمكنه أن يتخلَّى عن بذرة الأمل، كيف يُمكنه أن يرى انعكاس عينيه في المرايا، هل يُمكنه النوم وحيدًا دون أن يتردد على مسمعه كلمات أخيه. هل سيتمكن من تناول الطعام دون أن تغص اللقمة في الحلق، أيمكنه حقًا الاستمرار في الحياة! بعد أن تخلَّى عن قلبه.

لكن بعد ذلك، بعد أن رأيته في الكثير من الأوقات. أدركتُ بأنه عندما فعلها قد انتزع قلبهُ مُسبقًا وأن من قام بقتله ليس سوى رجل لا يشعرُ تجاهه إلا بما يشعرُ به تجاه عدو. وكم خفتُ! من ذلكً اليوم الذي سأعيش فيه دون قلب.

أنا رضا .. كيف أعيش دون قلبي.

(8)

كانون الثاني 1994

قلبي

"خبئيني تحت جناحيكِ

هبيني العُمرَ

وأزرعي الورد في قلبي،

أرجوكِ

أعيدي إليَّ قلبي ..".

عندما نُزِعَتْ الرحمةُ مني، وعندما تحوَّلتُ لطفلٍ يرى الدماء فلا تؤثر به، بلونها الذي أصبَح كأي لون.

وعندما أصبحَتْ ذِكرَى عائلتي بعيدة، بعيدة جدًا كما لو كانت حُلمًا نسيته بعد ليالي الكوابيس المُتتالية.

لكن يبقى الحُلم حُلمًا يشقُّ عتمة الليل دون أن ينتظر.

كان عامًا جديدًا، مليئًا بالأمنيات. وأمنيتي الوحيدة أن أبقى في الكوخ ألمسُ الكتُب وأتعلمُ أكثر.

مُنذُ البداية كانت رحمة تضع الحرف أمامي ثم تنطقهُ مرارًا،

تضعُ نقاطًا لكي أقوم بتوصيلها. ثم تضعها ضمن حروفٍ عديدة لكي أشير للحرف عندما تنطقه. وهكذا كانت تنطلقُ من حرفٍ لآخر. اجتهدتْ رحمة كثيرًا حتى أنها كانت تترك كتبها لساعاتٍ طويلة، تَحملَّتْ ضُعف قُدرتي وكانت تقوم بتشجيعي عن طريق الكلمات أو الحلوى التي كانت تُخبئها تحت وشاحها الطويل.

جلسنا في الكوخ هاربين من أعين الجميع، نتشارك الألم والأمل.

كانت الأوراق تُحيط بنا وبعض الكُتب، أوراقٌ تشهد على مرات الخيبة والانتصار. وكانت رحمة تجلسُ على يميني، بوشاحها الأبيض وثوبها الأحمر الطويل. نظرتُ إليها وهي تقرأ بعض السطور.

كانت مزيجًا من شيءٍ ما، لم أدرك ماهيته. لكنني فقط أشعرُ به.

بعد أن أكمَلتْ القراءة قالت لي:

"لقد تعلَّمتَ مني الكثيرَ مِنَ الحروف، سأضُعُ ورقةً أمامك وحاوِلْ كتابة جُملة من الحروف التي تتذكرها".

أكملتْ تقرأ كتابها بَعد أن تركتني في صراع كبير. تحدٍ لا أعلم إذا كانت لدي القُدرة على تحمِّله، شعرتُ بالورقَة ثقيلةً بين يديَّ. كيف يُمكن للكتابة أن تكون بكُل هذا الحجم لكي أشعر بها قبل أن تسقط في ورقة.

صَعدتْ شمسُ الأمل فوق رأسي بعد أن تمكنتُ من كتابة جملةٍ صغيرة، لكنها كبيرة جدًا في قلبي. من يد طفلٍ لم يكتب طوال حياته.

رُغم أن رحمة كانت مُنغمسة في الكتابة إلا أنها لاحظت رأسي الذي ارتفع بعد مُدة طويلة من المحاولات، باسمًا مُبتهلاً. تَركت رحمتي كُل ما بيدها وقفزت من مكانها لتجلس مُلتصقةً بي. في هذه اللحظة السريعة؛ دقَّ قلبي.

أكان بسبب ما كتبتْ، أم بسبب عيني رحمة!

سَكنت شمسُ سعادتي في عينيها، ورأيت بريقهما المتأجج. وَضعتُ الورقة في حُجرها فأمَسكَتها ملهوفةً لنجاح طال انتظاره. لكنها بعد أن قرأت الكلمة، وفي وسط ابتسامتها التيً بُترت فجأة. نظرت إليَّ بعد أن أطفئت الشمس ولم يبق سوى الحُزن.

أين قلبها الذي حلَّق وسكن بجانبي، أيَّ طيرٍ بعد أن طار يعود للقفص.

قَذفتْ الورقة حتى وصَلتْ قدميَّ وغادرت دون أن تقول كلمة واحدة. وأنا الذي صعقتني هول الصدمة مما فَعلتْ. دون أن أعلم ما ذنبي.

وسألتُ نفسي كثيرًا. أخيبت ظنَّ رحمتي بي. ألن تعود رحمة؟

وجاء اليوم التالي، تسللتُ حتى وصَلتُ كوخها وبقيتُ أنتظر. أي دقائق مرَّت، أي ساعات. كان الوقت لا يمشي، لكن ضوء الشمس يمشي إلى أن همَّت بالمغيب. دون أن تُشرق رحمة.

وفي لحظة المغيب الأخير، أتت رحمة. لكن بعد أن لمحَت وجودي نَظرت بأسى ثم غادرتْ دون أن تلاحظ لهفة عينيَّ أو جسدي الذي تيبسَّ.

لم يُلاحظ أحد حُزني. عُدتُ يتيمًا مرةً أخرى دون أن أعلمَ ما ذنبي. أي خطأ قُمت باقترافه. وأي ذنبٍ في الدنيا يستحقُ كُلَ هذا العقابْ.

كُنت أجلسُ القرفصاء أمام شجرةٍ وفي يديَّ سلَّةٌ من البرتقال.

كانت الحركة كثيرة في هذا اليوم، فَصلُ الشتاء يُعلن البدء والأرضُ تُحضِّر نفسها للنمو من جديد. محاصيل ومزروعات.

يهرولُ أحدهم إليَّ، وبعد أن وصَل أدركتُ بأنه أبو نبيل. جلسَ القرفصاء بجانبي وهو يتذوق إحدى حبات البرتقال بعد أن قُمتُ بتقشيرها ثم يلعقُ يده بعد تناول كل حبة. أخبرني بأن هُناك شيئًا ما سيحصل في نهاية هذا الأسبوع . وعليَّ أن أكون جاهزًا لذلك.

وهذا الرجلُ أيضًا مثلي، يفعل كما يفعلون دون أن يكون لهُ رأي. لم أعلم يومًا ماذا يُريد. فقط يسير كما يسير الموكب، دون أن يهتم بالوجهة، وكم هُم الأشخاص الذين يعيشون دون هدف!.

بعد أن انتهيتُ من عملي، جلستُ على الأرض بعيدًا عن المنازل، وبعيدًا عن الورق والأقلام. أستخدمُ يدي قلمًا والرمال ورقةً لي. محاولات عديدة أمسحها بباطن يدي.

لكنها منحتني المُتعة من جديد.

لمحتُ قدوم رحمة من بعيد، بجسدها النحيل والطويل. قاومتُ كثيرًا شعوري بالألم السابق والأمل اللاحق. لكنني مع هذا شعرتْ.

جَلستْ بجانبي وهي تراقب حركة يدي اللتين توقفتا في لحظة جلوسها، نظرتُ إليها أريد لها أن تتكلم. قالت:

"حاولتُ كثيرًا ألا أعود، لكنني لم أتمكن من ذلك، قاومتُ كثيرًا رغبتي بلقائك، لكنني لم أتمكن".

مدَّت يدها ترسمُ دوائرًا لا نهاية لها على الرمال. تكفُّ قدميها فوق بعضهما وهي تميلُ بجسدها نحوي لكن دون أن تكون قريبة كما هي كُل مرة. أكمَلتْ تقول:

"لقد تُقتُ كثيرًا لتلك الكلمة التي ستكتبها، أتكون حروف اسمي صعبة إلى هذا الحد! ألم أكُن قريبة منك للحد الذي يجعلك تتُقن حروف اسمي".

ما الذي يُمكن أن أترجمه من كلماتها، ما الذي يُمكنني أن أدركه من تصرفها! ألهذا تركتني كُل هذه المُدة. وهل هو سببٌ يستحقُ فعلاً أن تتركني في حُزني وحدي. وهي التي وعدتني أن تبقى بجانبي.

باغتني سؤالها:

" من هي آية!".

أيا آيتي، يا شُعلة قلبي. أيا آيةً قُرأتْ فأصبحت رحمة تخطُّ اسمها على شفاهها. هذا الاسم الذي جعل قلبي يُنبت لهُ الأجنحة. ليُعيدني إلى آيتي.

تلومني لأنني كُتبت اسم اختي عوضًا عن اسمها. تلوم ضُعف قدرتي وهي أعلم بها. يلوموني لأنني لم أنطق باسمي، إلى أن أنتهى بي الأمر بإلصاق اسمٍ ليس لي. اسمٌ يُذكرني بصمتي طوال الوقت.

فكرتْ، كيف يُمكنني أن أجيبها وبأي لغةٍ غير الكلام أو الكتابة تجعلني أبوح لها، فأدركتُ أن الحلَّ كانَ يلهو بين أصابع يدي، ينساب ليعود إلى الأرض. مسحتُ على التراب حتى أستوى ثم بدأتُ أرسم.

تمعنت رحمة بيدي وهي ترسم، زحفتْ إليَّ أكثر حتى التصقت بي. أكملتُ الرسم ثم نظرتُ إليها أنتظرُ أي شيء، أي كلمة تُسعدُ قلبي من جديد.

لكنني لم أحتج إلى كلمة، لقد كانت ابتسامتها التي غابت طويلاً تكفي عن آلاف الكلمات.

قالت وهي تضحك بعفوية وبراءة وجمال:

"إنك ماهرٌ بالرسم، كان عليك أن تُعلِمَني بذلك منذُ البداية لكُنتُ تواصلتُ معك من خلالها".

لم تكُن تعلم بأنني لم أعلم، وأن حاجتي فقط جعلتني أحاول، أكملتْ:

"كان عليَّ سؤالك منذُ البدء، الآن أشعرُ بحجم خطئي".

نظرتُ للرسمة المُتكاملة التي تنقُصها الروح، ثم مسحتُ الجميع وأبقيت على نفسي. تأوهت رحمة وهي تقول:

"لقد ماتوا.. أنا آسفة، بالتأكيد أنت بشوقٍ لأختك".

خيَّم الحُزن من ألم الذكرى والشوق، نَكست رؤوسنا خشية هطول دموعٍ لن نُدركها إن بدأت بالهطول. لكنها تداركت الأمر.

فقدَّمت يدها ورسمتْ بجانب الطفل فتاةً أقلُ حجمًا برداءٍ طويل يُشبه رداءها. ثم قالت:

"أنا هُنا، ولن أغادر".

تورد خدها خجلاً ودقَّ قلبي.

يُمكن للحب أن ينتشلك من أحلك الأماكن وأكثرها ظُلمة، يُمكنه أن يجعلك تُناضل حدَّ الرمق الأخير.

بالرغم من أنني كُنتُ طفلاً، لا يجب أن يُدرك الموت والدماء والحُب، لكنها جميعها لن تسألك عن عُمرك عندما تنوي اجتياحك. اجتاحني الحُب بقوَّة. الحُب الذي يُناضل أمام الموت لكي يعيش.

وأمام ذكرى آية، عادت إليَّ تلك الصورة من الماضي، عندما كانت قدماها تُلاحقان والدتي وهي تتذمر وتتلوى من الأسى. تلف وشاحًا أسود قصيرًا حول رأسها دون أن يُغطي رقبتها الطويلة وتضعُ قرطين بلون الذهب وبعضُ خُصل شعرها الذهبي يُداعب وجنتيها. كُنتُ أتناول طعامي في الغرفة الصغيرة التي نجلسُ بها في العادة وأشاهدهما يتكلمان. أختي تحاول أن تُمسك بوالدتي التي تحاول التهرُّب منها بأي عمل. كانت تُخبرها بأنها تشعرُ بفراغ كبير لا يُمكن لناصر ملؤه، وأنها لا تشعرُ تجاهه إلا كما تشعرُ تجاهي فقط. أي كأخ لها. كانت تقول لها، أي عُمرٍ سأعيشه مع ناصر وأنا لا أستطيع أن أشتاق إليه أو أتوق لرؤيته. لامتها أمي كثيرًا، وكانت تردد كلمة والدي "ابن عمك، خليلك" لكن آية لم تقتنع. تُخبرها والدتي بأن ناصر يعشقها ولن تجد رجلاً في الدنيا يُحبها كما أحبها. وبأنهُ مستعد بالتضحية بحياته لأجلها. فتختمُ قولها بكلمة " أي جاحدةٍ أنتِ".

تُقاوم أختي أكثر:

"لقد حاولت، أقسم لكِ. حاولتُ كثيرًا أن أحبه، لكنني لا أستطيع. أشعرُ بقلبي مقتولاً بين ضلوعي، لا أريد الزواج به".

عندها تنفعلُ والدتي وهي تضع سبابة أصبعها على فمها مُشيرةً لها لكي تصمت، فتقول لها مُهددة:

"إياكِ أن يسمع والدك بذلك، ثم إياكِ أن يشعر ناصر بفتور مشاعرك، لقد تزوجتُ والدك دون ما تُسميه الحب، ودون أن أعرفه. والآن بعد كُل هذا العُمر فأنا أحبه ولا أستطيع التخليَّ عنه. بعد الزواج سوف تُصبحان روحًا واحدة، وستحبين ناصر".

آية تصمت، لكن وهي تبكي. تحاول جاهدة أن تقتنع بكلام والدتي.

عندما لمحتُ ناصر يُناديها ذات يوم، كان يهمسُ لها بكلام لم أسمعه، لم يُدركا وجودي وبأنني أراهما، بعد أن كُنتُ أضعُ جسدي على جذع شجرةٍ ألتقطُ إحدى الفراشات. شاهدتُ ناصر وهو يُحاول عناقها. بَدتْ مُستسلمة لعناقه، إلى أن لَفظت نفسها عن جسده وهي تبتعد كأنهُ قام بشيءٍ خاطئ.

لم أفهم لِمَ فعلت ذلك إلى أن أخبرني ذات يوم بعد أن أغرقهُ الحُزن ولم يجد أحدًا يشكو إليه. كُنا نقطف ثمار التوت ثم جلسنا في الحقل:

"هل تعلم يا رضا، من المؤلم جدًا أن نعلم حقيقةً ما. لكن نحاولُ تجاهلها بكل ما نستطيع، رُغم ألم التجاهل فهذه الحقيقة تنمو كما ينمو الشوك".

ينظرُ إليّ بعيونٍ مُرهقة :

"لقد حاولتُ التخليَّ عنها، أن أترك لها حياتها التي تمنيتُ أن تكون حياتي. لكن قلبي يُقتل من الفكرة. فكيف لي أن أفعلها".

يبدأ الهذيان كما لو كان يتكلم مع نفسه:

"أأتركها!!".

" لا ، لا يُمكنني .. سأجنُّ".

" لكنها لا ترغبُ بي، لا تطيق لمسي".

" لكن لا، ستحبني ذات يوم، أنا متأكد".

وبعد هذيان مُستمر كأنما يُدرك فجأةً وجودي، ينظرُ إليَّ وهو يقول: "هل تفهمنيِ يا رضا!"

لكن لم يكُن حُب ناصر ما قتل أختي، بل كان شيئًا أعظم.

أعود لعينيِّ رحمة، كم أود أن أخبرها عن أختي، كم كان جمالها مُبهرًا، وكيف كانت تتمايل بخصرها الرشيق أمام الحقول. كيف كانت تُحركُّ يديها تِباعًا لحركة خصرها. كأنما تُصبحُ قطعةً من الطبيعة لا تتجزأ عنها. يعودُ إليَّ صوتها وهي تُغني أغنيتها المُحبَّبة التي كانت تسمعها من والدتي كثيرًا:

" وهرن وهرن رحتي خسارة

هجروا منك ناس شطارة

قعدوا في الغربة حيارى

والغربة صعيبة وغدارة

يا اللي ماشي ليها غادي

وصي اللي يتهولوا في بلادي

عمري ما ننسى بلادي

أرضي وأرض جدادي".

ألمحُ ناصر يُراقبها بعينيٍّ عاشق دون أن يقترب منها. لكنهُ يشعرُ بقلبه سماءً تُغطيها.

لا يُمكن لكل هذا التُراب أن يرسُمَ قلب ناصر الواسع، ولا عينيَّ أختي وصوتها. لن يرسم الجبل المُحترق عندما كان أخضرًا يانعًا أو أبيضًا كفستان عروس. لن يرسم الجمر الذي أصبح يملأ الجبل.

أغمضتُ عينيَّ ألتقطُ أنفاسي وأطرد الذكرى المؤلمة لأعود للحظة عناقي لأمي وهي تُخبرني:

" أحبك يا رضا، يا رضاي".

فتحتُ عينيَّ ونظرتُ إلى رحمه. صدى الأغنية في أذنيَّ ودمعةٌ خانت عيني. لاحَ الأفق أمامي ألا يُمكنه أخباري عمَّا يحملهُ المُستقبل.

(9)

آذار 1994

مِنْحة

"ظلل عليَّ

امنح الكون شجرةً

أولَدُ مِنْ رَحمِهَا".

خوفًا على السعادة المُخبأة، على أشلاء الأمل كُنتُ أعيش.

يُمكنني أن أقول سرًا. أو نصيحة، أن وقعت يومًا ضحية مع مجموعةٍ ما، كُن واثقًا أنهم مهما شاركوك معلوماتهم، فلن تكون كاملة. ستكون كتفسير الظل من مجموعة أجسام. وإن بقيت الأشكال أصلية، فإن الظل سيُعطيك أشكالاً أخرى.

ما بين الفُقر والموت والحُب كُنتُ أعيش، تمضي الأيام مُختلطة بكُل شيء، كأن تقول لك الحياة أن لا تهنأ بما في يدك فقد يزول.

كان جوفي مُفرغًا قابلاً بأن يُعبأه بأي شيء. ثم يُفرغه من جديد ليوضع به شيئًا آخر. كُنتُ مثل وعاء فقيرٍ يملؤهُ بأي شيء لكي يعيش.

في فترةٍ ما. وإن بدا الوقتُ لي مُبهمًا، كأنني أملكُ ساعةً مُعطَّلة. قام بعضُ الأشخاص بالانضمام للمجموعة. كانوا يحضِّرون لمهمةٍ ما، بعد أن فَشلتْ مهمة نهاية الأسبوع التي أخبرني عنها أبو نبيل، كما فهمتُ من همساتهم بأنها مُهمة أكبر من سابقتها.

كان المسؤول عنهم في هذه المُهمة رجلاً مُتمرسًا، يدعونه رفيق. لم يُخبره أحدٌ عن عجزي، فعندما جلسنا لأول مرة سألني عن اسمي، لكنني لم أتمكن من إجابتهِ فأخبروه بأن اسمي بروكا وهي الكلمة الوحيدة التي قُمتُ بنطقها.

فهمتُ فيما بعد من كلامه مع مجموعته بأن الاعتماد سيكون عليَّ وعلى ضآلة حجمي. لأن الدخول للمكان الذي يريدون يحتاجُ جسدًا مرنًا صغيرًا وذكيًا. كان يأخذني أحيانًا لإحدى الحصون فيضعُ أمامي المُتفجرات. يُخبرني أسماءها وكيفية تشغيلها، كان يطلبُ مني أن أهز رأسي كُلما فهمت. فتعجَّب من سرعة إدراكي لما يقول. بل كانت تمرُّ عليه لحظات يشكُّ بمدى صدقي فيقول:

"إياك يا بروكا أن تهز رأسك دون أن تفهم. لأن الأمر يعني الحياة أو الموت".

لكنني يا رفيق، أصبحتُ بقلب مُقاتل. لا قلب طفل. يُمكنني أن أعِي ما تقول وأن أشعر به أيضًا.

أخبرني رفيق وهو يُنظف أحد الأسلحة مُستندًا على حجرٍ كبير. لتبدو البيوت من بعيد مثل أسراب النمل:

"يُمكن لثانية خوفٍ واحد، أن تخطِفَ حياتكَ منك".

تعجَّبتُ من طريقة كلامه التي بَدتْ كأنها مُوجهّة لشخص كبير يُمكنه أن يُدرك حقًا ما يقول. أيكون رفيق قد آمن بي حقًا! بأنني أيضًا من البشر. أسمع وأشعر.

أكملَ دون أن ينتبه لذهولي:

"وعليكَ أن تكون راغبًا في القتال. لا أن تكون مُجبرًا، لأن الطريق الذي نمشي به. لا عودة منه أبدًا، إما الانتصار أو الموت.

لا يُمكنك أن تعود لنقطة البدء. تحلمُ بحياةٍ هانئة ومنزلٍ دافئ مع زوجةٍ وأولاد".

لا أعلم أن كان يحاول ردعي عمَّا أحاول فعله، فهو لا يعلم بأنني لم أختر هذه الحياة بل أنا مُجبر. حاولتُ كثيرًا أن أفهم ما يُريده مني. لكنني كُنت أشعر به قريبًا من قلبي بشكلٍ غامض. إلى أن توَّلت الأيام تأكيد هذه المشاعر وتفسيرها.

قال لي بعد أن حملَ عني سلاحًا ثقيلاً:

"أعتقدُ بأن قلبك باتَ أثقل من هذا السلاح، لا أعلم كيف تحملهُ في صدرك".

كان يمتلكُ عضلاتٍ ضخمة، ورغم هذه العضلات فقد كانت ملامح وجهه طفولية. وعينان بريئتان بلونهما الأزرق.

كم وددتُ أن أفهم، كيف لهذا القلب أن يكون هُنا، كم تمنيتُ سؤاله ألف مرة.

لكن الحياة سفرٌ طويل، طويلٌ جدًا .. يحتاج كل أنفاسك، وطاقتك، وصبرك.

لم أكن حينها أشعر بالكره تجاه أحد، كنتُ فارغًا من الداخل مملوءًا بالحب .. لهذا وثقوا بي، قالت لي أمي "إن القلب مهما كان كتومًا، فلا بد أن يَنفذَ من داخله الحب أو الكره، إنها طاقةٌ أكبر من قدرتك على إخفائها".

لهذا لم يشاهدوا من طاقة الكره شيئًا، لم يروا في عينيَّ حقد يتيم.

وثقوا بي، أكثر مما كان ينبغي.. وأذعنتُ بوجودي معهم أكثر مما هو معقول.

استمررتُ على هذه الحال، أشاهد كثيرًا ولا أنفذ شيئًا. حتى كُدتُ أؤمن بأنني ولدتُ معهم.

لكن الخطط العُظمى لا تسقط من العقول أبدًا، تحتاج زمنًا طويلاً لكي تصل إليها وتشاهدها.

عشتُ عالمين في آنٍ واحد، أنقسمُ لقسمين لكي أعيش، في الأيام التي لا أذهب بها معهم، كُنتُ استمعُ للكتب من لسان رحمة، فأتذوق حلاوة الحياة رغم بؤس ما لا أستطيعه. لكن من الرحمة بالبشر، أنهم قادرون على التأقلم.

نحنُ لا نموت حتى لو عايشنا الموت كل يوم. قدرةٌ بالغةٌ على الحياة.

لكن ابتسامة رحمة رُغم كُل المآسي، تنقلني مثل آلة زمنية لعالمٍ آخر من خلال عينيها وكلماتها وابتسامتها التي تُغدقها علي. لكمً أحببتها، لا يُمكنني معرفة ذلك ولا يُمكنكم إدراكه.

قبل شهر من المهمة وبعد اقترابنا الشديد من هدفنا، كُنتُ أجلسُ أمام باب منزل رفيق أنتظره، حتى جاء إليَّ يحملُ طعامًا بين يديه. وضعهُ أمامي فبدأتُ بالتهامه من شدة الجوع. وبعد أن ملأتُ بطني، أدركت أن رفيق يُراقبني بحنوّ.

قال وهو يُربت على ظهري:

"لو كان بيدي تغيير الزمن، لجعلتك في مكانٍ آخر. وإن كُنتُ أنا في ذاك العالم سأتمنى لو كُنتَ ابنًا لي".

مهما رأيتَ أو شعرتَ، فلا يُمكنني أن أجد رجلاً مثله. كان يستيقظ ليوقظني معه. يُساعدني على تهذيب ملابسي. يُسرح لي شعري وهو يضحك قائلاً بأنني أملكُ هندامًا جميلاً، يُخبرني بأنهُ يشعر بأنه يقوم بتجهيزي للذهاب للمدرسة وليس للمعركة.

كان شمسًا يُدفئ عظامي التي ترتجف، أعادَ إليَّ ما أشعرُ به تجاه الحياة بعد أن ظننتُ ألا يعود. رفيق ورحمة كانا عالمي الأجمل.

رغم كُل شيءٍ جميل كان يفعله. إلا أن أجمل ما فعلهُ على الإطلاق. عندما نادى اسمي ذات يوم.

من أين أتيت يا رفيق! سألتُ نفسي ألف مرة.

كان يقول لي : "رغم كُل شيء، نحنُ نحتاجُ أرضًا آمنة نعيشُ عليها. لكن الأمر مُستحيل، لا يجتمعُ الأمان والظلمُ معًا".

تمنيت لو أخبرني أكثر، أن أفهم أكثر لكن الوقت لم يُسعفنا لنبقى معًا.

وفي ليلةٍ ذات رياح باردة والثلوج تُغطي الأرض، نمتُ في منزل رفيق الذي يمتلكه وحدهُ. ويجتمعُ أحيانًا مع بعض الرفاق ليلاً. كُنتُ في مهجعي بغطائي الدافئ وقلبي المُفعم بالحب.

أما رفيق فمعهُ أحدهم كان يُلازمه في الكثير من الأوقات. ذو شخصيةٍ غامضة.

اقتربتُ من باب الغرفة التي يجلسان فيها.

سمعتُ ذلك الرجل يقول:

"هل الفتى نائم".

لم أسمع صوت رفيق، لكنني أعلم بأنه قد هزَّ رأسه، لأن الرجل أكمل يقول:

"أريد أن أخبرك، بأن الجميع قد لاحظ اهتمامك بهذا الفتى. ولأنني أقربُ شخصٍ إليك يحقُّ لي سؤالك عن سبب هذا الاهتمام المُبالغ فيه".

صمتا، ولأن رفيق لم يُجب، أكمل هذا يقول:

"هل تُريد كسب عطفه لاستغلاله في المهام الآتية؟ لأن الجميع يُشيد بذكائه".

شهقتُ بصمت، وكيف لمثل هذا الظن أن يغيب عني، وأنا الذي جرَّبتُ مرارًا ألم حُسن الظن. كان جُزءًا من نور غُرفتهم يصلُ لقدميَّ وعندما نكستُ رأسي شاهدتُ هاتين القدمين ترجفان. فأرجعتهما بسرعة للخلف. بعيدًا عن النور، وانتظرتُ إجابة رفيق. أن يَخيبَ الظنُّ بشكلٍ أقوى وأكثرُ ألمًا.

خفتُ كثيرًا من الأمل الذي سيتبدد بعد كلمة رفيق، أن أفقد عائلتي للمرة الألف بعد الأولى.

سمعتُ تَنهيدة رفيق الطويلة، قبل أن يُجيب:

"ليس الأمر بكُلِّ هذه البساطة".

صَمتَ وهدأ صوت عقلي، ثم أكمل:

"عندما تشعرُ بوجودُ الملائكة، سيتجلَّى لَكَ الشيطان بصورته الحقيقة. وشياطين أفعالي تتجلَّى كُلما رأيته".

أجاب الآخر بغضبٍ ظاهر:

"أي هذيان بدأتَ به! كيف لَكَ أن تقول ذلك ونحنُ نفعلُ كُل ما هو عظيم. نحملُ مُهمة إعادة الحقوق لأصحابها. ما الذي فَعلهُ بِك طفل؟".

أجابَ رفيق:

" لم يفعل شيئًا، فقط؛ جَعلني أشعرُ بقلبي".

نمتُ نومًا هانئًا، بلا كوابيس. كلمات رفيق تتردد على مسمعي كحلم ملائكي لا أريدُ الاستيقاظُ منه، وعندما استيقظت ذهبتُ إليه ثم قبَّلتهُ وهو نائم، استيقظَ ثم نَظرَ إليَّ بنصف عين. أغمضَ عينيه مرةً أخرى لكنهُ قال وهو يبتسم:

"لو كُنا بمكانٍ آخر وظروفٍ أخرى لطلبتُ منك النوم بجانبي".

أكمل نومه وأنا مضيتُ إلى الحقول وقلبي شجرة عنبر تفوحُ عطرًا.

(10)

آذار 1994

مِحْنة

"رِفقاً؛

أعد إليَّ طاقة الكون

أعد إليَّ حُزني".

لقد وجِدنا. نحنُ الصامتين، لكي يُدرك الآخرون مِقدار النعمة التي يعيشونها.. وجدنا لكي نمتصَّ شفقة هذا الكون وحزنه. وجدنا لكي تكون للعيون أكثر من لغة وللقلب أكثر من وجع.

لو كانوا يدركون بأنني أتوق لقول كل ما أشعرُ به. بأن الكلمات تعصرُ علقمًا كلما أبت أن تخرج.

أتذكر! بكيتُ كثيرًا عندما تعبتُ لأجل إيصال ما أريد لأمي وهي لم تفهمني، قالت لي وهي تمسح دموعي المُنسابة على خدي:

"حبيبي رضا، قد أسميناك دون أن نعلم بأن اسمك سيكون نصيبًا لك. وأن عليكَ أن تقبل بالمكتوب وترضى به".

كان عليهم أن يأتوا بي إلى هُنا يومًا واحدًا، لأعلم قيمة

الصمت بينهم، إن الأحاسيس والقبول بالمكتوب يختلف من مكانٍ لآخر. في الجبل يُحاولون فهم صمتي، لكن هُنا يحاولون جعل الجميع صامتين مثلي.

إنه زمن الصمتُ يا أمي، هُنا حيثُ يموت الجميع دون قول كلمة.

أصبحنا جاهزين لتأدية المُهمة المجهولة الأسباب بالنسبة لي، لكنهم أقنعوني بأن من سنقتل يستحق الموت. وأن لا ذنب نقترفه .

قبل موعد الانطلاق بيومين، جلستُ قُرب الصخور المُطلَّة على القرية أحاول كتابة ما قامت رحمة بتعليمه لي على الرمال لكي لا تُنسيني إياه الأسلحة. أرسم خطوطًا لا معنى لها. أحاول من خلالها إيجاد أي حرف لأكوِّن كلمة واحدة. لكني كُنتُ أتخيل هذه الخطوط جملاً تدور في عقلي. تمنيتُ لو يتمُّ اختراع لُغةٍ جديدة يفهمني من خلالها أي أحد.

شعرتُ بجسد رفيق يجلسُ بجانبي وهو يُربتُّ على رأسي يُحييني بودٍ. تمعَّن بالخطوط المرسومة على الرمال وهو يُحاول فهمها. ثم بدأ الحوار ذا الجهة الواحدة والذي سيتحوَّل لأول مرة بحياتي لحوارٍ من طرفين:

"هل تحاول إيصال شيءٍ ما يا بروكا؟".

أحبُّ عينيه كثيراً كُلما نَظرَ إليَّ بكلِّ هذا الحُب والرفق، أكمل يقول:

" أخبروني بأن اسمك بروكا، أيعقل أن يكون اسمك! شعرتُ بأن الأمر غريب . بالتأكيد أنهم أساءوا فهمك".

اومأتُ برأسي، فسألني:

"ألكَ اسماً آخر؟".

اومأتُ رأسي بشدة ، مرارًا . تمكَّن رفيق من فهم لهفتي التي انبثقت من سؤاله. هذا الإحساس المؤلم من فقدان اسم. مَسحَ فوق التراب حتى اختفت الخطوط، ثم كَتب كُل الحروف بشكلٍ مُرتب:

"هذه كل الحروف، سوف أشير للحرف مع نطقه، عندما أصل لحرف اسمك الأول امسك يدي. هل اتفقنا؟".

كانت الجنة على مقربةٍ مني، هَاهُنا بين حروفٍ ستجمعُ اسمي. وبعد أن كانت كُل أحلامي أن أتكلم كبقية الناس، أصبح أقصى حُلمي أن يعود لي اسمي. هذا الكيان وهذه الهوية التي تربطني مع كُل ما أحب. بعد أن ذَهب مني كُلّ من أحب فأنا أحتاجُ لهذا الرابط بشدة.

بدأ يذكرُ الحروف إلى أن وصلَ لحرف اسمي الأول، مسكتُ يدهُ بسرعة خوف أن تذهبَ مني فضحك رفيق وضحكتُ معه. كانت هذه اللعبة الصغيرة من رفيق قد أعادت لي لغتي، جعلني أشعرُ بأن لي لُغةً؛ أخيرًا يُمكنها أن تخرجُ مني.

لَمعتْ عيناي وخفق قلبي. كيفَ يُمكنني أن أشعر بأنني أتكلم.

وفجأة؛

"رضا".

قالها ثم بكيت؛ هذا الحنين، قاتلٌ حقًا.

عانقني بين ذراعيه وهو يمسحُ دموعي:

" رضـا، مـا أجـمل هذا الاسم، وكم هـو يليق بك يا صـديقي. سأخبر الجميع عن اسمك. لن تكون بروكا بعد اليوم".

عندما بدأت المأساة، تخليتُ طوعًا عن ارتباطي بالحياة. وإن كانت حياة المرء أغلى ما يملُك إلا أن هذه الحياة تفقدُ قيمتها كُلما فقدت من تحبهم.

لكنك تكتشف بأنهم مثل شجرةٍ لها جذورٌ عميقة في الأرض. وإن قُطعت الشجرة، ستنمو من الجذور مرةً أخرى بشكل أو بآخر. لقد نَبتَ رفيق من هذه الجذور. أعاد لي ارتباطي بالحياة.

وفي اليـوم التـالي، صبـاحًا أتى (سي مـحـمـد) لكي يوقظني وأخذني معه. لقد كان هذا الرجل من الأمازيغ، ويُعرف بأن الأمازيغ قبائل كثيرة ومُتفرقة لهم لغة مُختلفة، كان هذا الرجل يقوم بتجميع أطفال القرية ليقرأ عليهم آياتٍ قرآنية ثم يُنشد لهم قصيدة البُردة والهمزية بصوتٍ عَذِبٍ.

جلستُ في نهاية تلك الصفوف أستمع لصوته:

مـــولاي صل وسلم دائمـــاً أبدا
على حـبـيـبك خـيـر الخلق كلهمِ

أمن تذكـــر جـــيـــرانٍ بذي سَلَمِ
مـزجتَ دمعـاً جَرَى فـي مـقلةٍ بدمِ

مـا هبَّت الريحُ مِن تلقـاءِ كـاظمـةٍ
وأومضَ البرقُ في الظَّلماءِ من إضمِ

ثم يُردد:

كـيفَ تَرقَي رُقـيّكَ الأَنبـيـاءُ
يا سَمَاءً مـا طَاولَتـهـا سـمـاءُ

لَمْ يُسـاووكَ في عُـلاكَ وَقَـدْ
حـالَ سَنّي منْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ

أنَّمَـا مَـثّلُوا صـفَـاتكَ للنّاس
كَـمَـا مَـثَّل النُّجـومَ المَاءُ

أنْتَ مـصْبَاحُ كُلّ فَضْل فَمَـا
تَصْدُرُ إلا عَنْ ضَوْئكِ الأَسْمَاءُ

لَمْ تَزَلْ في ضَـمَـائر الكَوْن
تُخْـتَـارُ لَكَ الأُمّـهـاتُ والأَبَاءُ

مَا مَضَتْ فَتْرَةٌ منَ الرُّسْل إلاَّ
بَشَّرتْ قَـوْمَـهـا بكَ الأَنبـيـاءُ

فـيـردد الأطفـال مـا يُنشـد، أمـا أنا، فـإن روحي تدخلُ أعـمـاق الكلمات تُهديني السَكينة بشكلٍ عجيب.

ليتَ اليومَ لم ينته، ليأتي اليوم اللاحق به يَخطفُ السَكينة من أعماق الروح.

قامَ رفيق بمسح وجهي وتسريح شعري وهو يُعيد كلماته مرارًا على أسماعي، كان صوتهُ يرتجف. كأن هزةً عَبرتْ أوتار صوته. هل يخافُ رفيق! هذا الرجل الجبَّار.

وفي نهاية كلماته قال لي:

"مهما يحصل، فإن حياتك أثمن من كُل شيء. حافظ على حياتك يا رضا".

انطلقنا وعندما وصلنا إلى نفق طويل. كان طويلاً لدرجة شعرتُ بأنفاسي تنفذُ من صدري. لكن يد رفيق لم تتركني لحظة.

خرجنا من النفق لأجد بأننا أصبحنا على مَقرُبةٍ من عِدة بنايات كان لها الشكلُ نفسه.

كُنتُ أنا ورفيق مع ثلاثة رجالٍ آخرين، نحملُ حقائب المُتفجرات وبعض الأسلحة. مع كشافٍ صغيرٍ. كان المكانُ هادئًا لأن الساعة بعد الحادية عشرة ليلاً. لكن الأضواء في الخارج مُنتشرة كُنا نقوم بتجاوزها بكل حذر . وَضعني رفيق أمام الجدار الخلفي للبناء ثم حَملَ الحجرين من بطن الجدار . فهمتُ من طريقة حمله أنهم قاموا بنزعه سابقًا لكن وجوده كان فقط لكي لا يكتشف أحدٌ اختفاءه. طَلبَ مني الدخول ثم فتح قفل الباب من الداخل.

انطلقتُ وفتحتُ الباب. دَخل الجميعُ بهدوءٍ شديد. قُمنا بتوزيع المُتفجرات على أطراف البناء.

لكن فجأة دون سابق إنذار أمَسك رفيق كتفيَّ بقوة وهو يلتفتُ حوله. لقد أدركَ أحدهم وجودنا. شعرتُ بارتجاف يديه الممسكة

بكتفيٌ. وعندما وصلنا إلى الباب كان مُقفلاً. كانت المُتفجرات على وشك أن تُعلن انفجارها. قاموا جميعهم بضرب الباب حتى تهالكت أجسادهم. عُدنا إلى المكان الذي أدخلني منه رفيق. طَلبَ مني الهرب. وأن أخرجُ بسرعة، لم أرغب بالخروج وتركهُ خلفي. لكنهُ دفعني بقوة وهو يقول لي غاضبًا:

"لقد أخبرتك بأن حياتكَ أولاً".

كُنتُ أبتعدُ عنهم أكثر وهُم يحاولون هدم باقي الجدار لكي يخرجوا. ابتعدتُ خلف الأشجار وأنا أدعو الله كثيرًا أن يخرجَ رفيق. إلى أن سمعت صوتًا وصلَ عنان السماء.

اجتاح رفيق عقلي. جعلني أركضُ عائدًا إليه دون التفكير بحياتي. رأيتُ الاثنين أولاً يهربان من الموت. يُرددان على أسماعي بأن أعود للنفق لكي نهرب. أين تلك العبارة التي كانوا يُطلقونها "نحنُ جسدٌ واحد. نموتُ معًا أو نحيا معًا".

كيف تركوا رفيق خلفهم. تجاهلتُ كلماتهم إلى أن وصلتُ لجسد رفيق مُلقىً على الأرض.

هالني جسده المُمتلئ بالدماء والجراح. أنفاسه تكادُ تخرجُ من جسده، أقاوم رغبة منع الأرض من امتصاص دمائه. كُتل لحم تخرجُ من جسده الطاهر. لم أخف من الدماء أو من رؤيةٍ جسدٍ مُقطَّع. لقد مُتُّ خوفًا من فقدانه.

تأوهت وأنا أشعرُ بالألم ينبثقُ من جسدي لا جسده. هززته أتمنى أن أناديه. أتوسل إليه ليذهب معي. لكنهُ لم يتحرك. قاومَ الموت ليهمسَ لي بصوتٍ ملؤه الرجاء والألم:

"اذهب فأنا ميت، لا تحاول إنقاذي، أرجوك .. حافظ على حياتك يا رضا".

خرجَ النفسُ الأخير مع نُطقه لاسمي. قُطِعتْ الشجرة للمرة الألف بعد الأولى.

لقد فقدتُ رفيقي، هل أملكُ قلب شيطان ليموت كُل شخصٍ يعيش فيه!

أصوات إنذارات تدوي في كُل مكان. وجسدُ رفيق بين يديَّ، تمددتُ بجانبه ونمتُ على ذارعه أتذكرُ كلماته "لو كنا بمكانٍ آخر لطلبتُ منك النوم بجانبي".

لكنني لن آبه للمكان يا رفيق. سأنتظرُ ذهابي معك، أن تأخذني هذه المرة لذلك العالم الذي أختفى به الجميع. خُذني يا رفيق. لقد امتد هذا الألم بشكلٍ لا يُحتمل.

امتصتْ ذراعه كُل دموعي، واستكنتُ بجانبه كأنني أنام للمرة الأولى في حياتي.

(11)

ما فقدت

فتحتُ عينيَّ بصعوبة.

هل أنا في الجنة! هذا العالم الآخر الذي قالوا لي عنهُ كثيرًا. أيكون مُجرد ضوء!

استكنتُ للفكرة حتى شعرتُ بها تتوغل إلى أعماقي مثل قصيدة البُردة بصوت (سي محمد)

مولاي صل وسلم دائمًا أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهمِ.

إلى أن اخترق صوت حليم ليُبدد صوت سي محمد الراقد في دماغي، نهضتُ من مكاني زاحفًا.

لم تكن الجنة. وما الضوء سوى أشعة الشمس التي اخترقتْ الغرفة مرورًا من شق كبير في الجدار. وصلتُ الباب بصعوبة واتكأت عليه بجسديَ الذي لا أعلم من أين أتت آلامه وجراحه. تلك التي لم أشعر بها في لحظتها.

كانوا يصطفون أمام حليم، الرجال الذين نجوا من العملية. أخبرهم بأن هذا الإهمال كان بسببهم. وكانت مُهمتهم الأولى أن يتأكدوا من خلّوا المبنى من المسؤولين.

لم أدرك أين كُنَّا. لكنني أدركت بأننا بعيدون جدًا، حملوني إلى السيارة وقاد حليم الطريق الطويل. وضعتُ رأسي على النافذة، أشعرُ به ثقيلاً لا يُمكنني حمله. كانت أشجار الأرز تُغادر عينيَّ وتذهب للخلف. الواحدة تلو الأخرى.

كُلما تقدمتْ يُصبح كُل شيء في الخلف. أريدُ الوقوف لو قليلاً. أتمعَّن بكل ما أحب قبل أن يذهب. لكنهم لا يتركون لي فُرصةً لذلك، ألا ليتهم يتركونني خلفهم مثل هذه الأشجار.

عاد الجميع لأعمالهم، أما أنا فحملتُ نفسي إلى كوخ رحمة متجاوزًا كُلَّ الأعين. وجدتُ أحد كُتبها يبدو أن الوقت لم يُسعفها لتخبئه. وضعتُ رأسي عليه لكي أنام.

من رائحة رفيق إلى رائحة هذه الكُتب التي تابعتْ امتصاص دموعي. لم أنم هانئًا كما نمتُ على ذراع رفيق. ذكرى ما فقدتهُ تُتابع شقَّ روحي.

أين أذهب يا رفيق إن كان المكان لا يليق بي!؟ لم تقل لي إلى أين أذهب.

كيف سأعيش مع كُل هذا الصمت. يُجزئني الألم وتكسُرني الوحدة.

عندما وجدتُ نفسي حيًا. عندما رأيتُ الجميع إلا رفيق. علمتُ بأنه كان صادقًا كما كُل مرة "اذهب فأنا ميت"، لماذا لم أقل له "خذني معك" لماذا لم يقل "تعال معي".

أي أعجوبةٍ أخرى جعلتني أبقى على قيد الحياة. هل عادوا لأجل أخذي من بين أحضان رفيق غير آبهين بالموت! لو قالوا لي أن روح رفيق حملتني وخرجت بي لصدقتُ أكثر.

إنه يحمل روحًا ملائكية. وإن لوثته هذه الحياة، سيبقى رفيقي.

ضممتُ قدميَّ بيديَّ لأعود كما الجنين. تذكرتُ الاسم الذي كتبته، آية!

كانت تُخبرني قصصًا من خيالها قبل نومي كُل يوم. ثم تُخبرني ما المغزى من كل قصة. لم تُعاملني كطفل وإن دللتني كثيرًا. لم تتكلم يومًا معي بحذر.

كانت تقول لي عن حكاية العجوز التي صنعت بيتًا من الحلوى لكي تخدع الأطفال من خلاله. وعندما يشاهدون الحلوى فيأكلون منها دون توقف. إلى أن يصبحوا سمينين فتأكلهم. كانت تقول لي بعد أن تنتهي بأن الحياة كما هذه الحكاية. تُزيِّن لنا حتى نسمن كُلما التهمنا منها، ثم تقضي علينا.

تُشير بيدها مُحذرة بأن لا أصدق كُلَّ ما أراه وأن كان قصرًا من الحلوى. ثم تضحك وهي تضمني بشدة.

"لكنك تحب الحلوى يا رضا، ستأكلها حتى تسمن".

تُخبرني أيضًا عن قصة الماعز التي كانت تعيشُ في مزرعة رجل في إحدى القُرى البعيدة. لكن هذه الماعز كانت تبقى مُستيقظة كُل الليل تُراقب الجبال والنجوم التي تُزيِّن الجبل كاللآلئ. تُخبرني بأن هذه الماعز كانت تتوق لذلك المكان كثيرًا وتُفكر بالهرب. إلى أن حصل ذلك ذات ليلة وعندما وصلت الجبل كانت تقفز في كُل مكانٍ فرِحَه. إلى أن هاجمها الذئب على حين

غفلة. لمْ يُنجدها أحد رُغم صوتها الذي ارتفع. وبعد جهدٍ كبير تَمكنتْ من الهرب والعودة إلى المزرعة. لم يَعلمْ أحدٌ بهربها ولم تُفكر مجددًا بتلك الحُرية التي كانت تتوق إليها كُل ليلة.

"قد نظن بأن العالم في الخارج أجمل وأفضل مما نحنُ نعيشه. لكن يا رضا سوف تجد في ذلك العالم أيضًا من يحاول استغلالك".

لم أهربْ يا أختي، ولا صوت لي ليسمعه أحد. ولقد أضعتُ طريق العودة.

كانت آية تقود أحلامي، كما تُقاد الغيمة خلف الريح، فتهطلُ أحلامي كل ليلة على وسادتي. الأرواح التي ألتقيها، والعجوز التي تريد أكلي. كلماتها عن الحياة الأخرى، وعن العالم الآخر.

أخبرتني بأننا نملك قلبًا يحملُ كل ما نراه منذ الطفولة، بأننا نكون نِتاج ما يحمله هذا القلب. لهذا أوصتني بالحب.. أن لا أحقد على من يتمكنون من الكلام بينما أنا صامت. قالت بأن هذا لن يجعلني أتكلم، لكنه سيجعل صمتي ثقيلاً.

وعندما أبكي! تأخذ بيدي ثم تُعيد المحاولات كثيرًا لأجل فهمي، تقول لي بأن لا أحزن كُلما عجزت عن الوصول لما أريده، بأنني عندما أكبر سأقوم بكل شيء وحدي ولن أحتاج مُساعدة أحد.. تبتسم وتأخذني بين أحضانها لتغني لي ونحنُ نمشي في الجبل.

تُخبرني بأنني أعزُّ ما تملك على هذه الأرض.. بأنني حياتها، لكنني لم أكن أغلى ما تملك حقًا. أو نكون أنا وذلك الشخص معًا أغلى ما تملك.

في هذه اللحظة. تعود لي الذكرى الأخرى المُرتبطة بأختي.

في الجوار كان لي حقلٌ صغير لم يعش طويلاً. كان محاولاتٌ مني لتعلُّم ما يخبرني به "حسن" ذلك الشاب الذي عمل في مزرعتنا لكي يتدرب.

كُنتُ أجمعُ البذور عندما سمعتُ صوت صراخ ارتفعَ فجأة. ودون سابق إنذار. أوقعتُ ما بيديَّ وأنا أعودُ راكضًا إلَى المنزل.

شعرتُ بخوفٍ منعني من دخول المنزل من خلال الباب. لهذا ذهبتُ للنافذة المُقابلة لغرفة المعيشة.

ها هي الذكرى تعود بشكل أوضح. ببطء تعود لي تلك الأحداث، ورغم أنني فقدتهم جميعًا ولم يعد هناك خطرٌ أخافُ عليهم منه. إلا أن قلبي يخفقُ الآن كما تلك اللحظة.

كان والداي وأختي.

آية تجلسُ على مقعدٍ خشبي تُغطي وجهها بيديها. لم ترفع رأسها ابدًا. ولم تكن تبكي، كان الأمرُ أكبر.

والدي يُمشِّط الأرض بقدميه وهو يصرخُ غاضبًا، وأمي تتبعه كالجارية.

أصغيتُ أسماعي لصوت والدي الذي يقول: "لقد أؤتمن على بيتي. وعلى أرضي، فكيف له أن يتجرأ على فعل ذلك؟".

اختفى ثم عاد من المطبخ يحمل سكينًا بيده، وأمي ترجوه بكل ما للشفقة من معنى:

"لقد أخطآ، لكن لا تخطئ أنت أيضاً.. سأغلق الباب عليها ولن تخرج إلا لبيت زوجها. أعدك".

لا يُمكن لشيء أن يقتلع قلبك من مكانه، كأن تشعرُ بأن عائلتك في خطرٍ لا تعلمُ كنهه. لكنك تعلمُ بأنه قريبٌ جدًا. يتجسدُّ فيهم.

بعد رعب مُتلاحق وتخمينات لا أساس لها ولا قرار، فهمتُ بأن حسن قد قام بخيانة والدي.

كان والدي يردد: "لقد طعنني يا أم رضا" حتى يكادُ يبكي.

لكنني وحدي من سمعتُ حسن وهو يقول لي ذات يوم: "أجدُ نفسي مُرغمًا على ذلك. رُغم أنني لا أرغب، لكنني لم أتمكن من كبح جماح قلبي. أشعرُ بالذنب يُثقِلُ كاهلي". ينظرُ إليَّ وهو يعلمُ جيدًا بأنني لم أفهم شيئًا.

نظراته التي كان يسرقها عن الجميع لتحطَّ على وجه أختي. ابتسامتها التي لم تُفارقها منذ قدوم هذا الشاب إلى الجبل. كان كُل شيء أمامي، لكنني لم أفهمه أبدًا.

" الغرباء يبدؤون بقبول كل شيء، ثم يطمعون بكل شيء".

كان كُلُّ شيء هو قلب أختي.

بعد أن تلاشتْ غمامة الصدمة تمعنتُ أكثر. رأيتُ ظِلاً خلف الباب المفتوح والذي يؤدي للخارج. أمعنتُ أكثر بذلك الجسد المتيبس والوجه البائس.

لم يكن سوى ناصر!

هادئًا مثل بحر، وهائجًا مثل بركان، رغم أنه صامت ولا يتحرك.

يقشعرُّ بدني الآن، كما لو أن عينيٌّ ناصر أمامي.

المرحلة الثانية

(12)

شباط 1997

رحمة

"مثل حُلمٍ طويل، ومثل رفة جفن؛
كانت حياتي."

طفلان، بثيابهما المُبتلة بالوجع والمطر كُنَّا نقف وجهًا لوجه. أكثر طولاً وأكثرُ نُضجًا. وهذه السنين التي كانت كفيلة بجعلنا عاشقين ينتظران يومًا يجمعهما للأبد.

قالت رحمة:

"يجب ألا أن يرانا أحد، لم نعد أطفالاً".

أصبحتُ طويلاً بسرعةٍ فائقة رُغم أنني لم أتجاوز الرابعة عشرة. هذا الطول الذي جَعلَ جسدي يبدو أكبر عُمرًا. ورحمة هذه الفتاة أصبحت في غاية الجمال. كأنما العالم وَهبها سحره، ولكأن قلبي خُلق ليحبها.

لم تعد صغيرة، ولم أعد طفلاً.

كانت ترتجف من البرد، ورداؤها المُلتصق بجسدها. جعلني أعلم كيف تولد الرغبة من الحُب. وكيف للحب أن يجعلنا نكتمُ الرغبة.

رغبتُ بضمها، حمايتها واحتوائها. أن يختفي كُل هذا العالم فلا يبقى سوانا. لكنها كانت ترجفُ من الخوف أيضًا. لطالما قالت لي "أخافُ أن يقتلوك. لا يجب أن يشاهدنا أحد".

كان خوفها يجعلها تلتقي بي وهي تنظرُ كثيرًا حولها. يُشعرني هذا الخوف بعجزي عن حمايتها حتى من الخوف.

لم أتمكن من إخبارها عن حجم العشق الذي يحتلُّ قلبي، لم أتمكن من أخبارها بأنني أعيشُ لأجل هذا العشق. لكنها كانت تعلمُ ذلك جيدًا. وهذه المعرفة تُخفف العبء عن قلبي.

وَضعتْ يدها على قلبي وقالت:

"يكفيني أن أكون هُنا، لا تشعر أبدًا بأنني أريدُ المزيد".

تذهبُ من أمامي وهي تلتفتُ حولها. ثم تُعطيني نظرتها الأخيرة، هذه النظرة التي تؤجج الرغبة وتشُعِلُ الحُب.

(13)
آذار 1997
صِرَاط

الثلوج تُغطِّي الأرض، الأشجار والسهول والجبال. رجالٌ يختبئون تحت القشابية وقايةً من البرد الشديد. رغم أن القلوب أشد برودة لا يُدفئُها ألف رداء.

نهضتُ مُرغمًا رُغم أنني لا أريدُ النهوض.

شعرتُ أن شيئًا ما يحدث في الخارج. وبعد أن ألقيتُ نظرةً ذُهلت من الذي شاهدته. كان الجميعُ يركض رُغم البرد الشديد والثلوج التي تهطل. وقفتُ ببلاهة أنظرُ إليهم دون أن أفهم ما الذي حصل. وأي كارثةٍ يهربون منها.

امرأةٌ سقط وشاحها الأبيض فلم تعد لتأخذه. كأن لا أحد سينظر إليها من شدة الخوف. وهناك أخرى تحملُ طفلاً بذراعها. وتُمسك الآخر من يده حتى كاد يطير لأعلى. أما الرجال فكانوا يخبئون الأسلحة في أماكنها السريَّة. ولم يتلفتوا لنسائهم أو أطفالهم.

مثل النمل الذي وطأتهُ قدمٌ كبيرة. يتصادمون ثم يعودون. لا يعلمون لأي وجهةٍ يذهبون، لكن مع هذا يتحركون.

أعادتني لرشدي، يد أحدٍ تنتشلني من ذراعي فتأخذني بإحدى مركباتهم.

افترقنا عن بعضنا، وأولئك الذين عشتُ معهم كُلَّ هذه السنين لم ألتق بهم أبدًا.

جننتُ من فكرة ألا أجد رحمة، بأنها ستكون في الجانب الآخر من العالم ولن أراها بعد اليوم. انتظرتُ كثيرًا أن يعود الجميعُ لأعمالهم، لكي تعود رحمة وتُشاهدها عيناي من جديد. لكنها لم تعد، فظننتها خائفة أن يشُاهدنا أحد.

مضى اليوم والذي يليه والذي يليه، وأنا أقتاتُ على الأمل. كُنتُ أغرق، لكنني تحوَّلت لسمكة لا يقتلها الغرق. فعشتُ الحُزن بصمتٍ.

كدتُ أختنق، صعدتُ لمكانٍ أبعد، صنعتُ قبرًا وجعلتهُ قبر رحمة. ثم بكيتُ فوقه.

إذا انطفأتْ رغبة الروح، تنطفئ رغبة الجسد، انطفأت رغبتي مع موت رحمة ومات الحُب في قلبي. أنتظرُ أن تعود الروح من قبرٍ صنعتهُ بيدي.

بقيتُ مع حليم ورسول وعائلاتهما. كان مُقدرًا لي ألا أفترق عنهم.

فهمتُ منهم أننا انتقلنا لجنوب "سيدي ربيع" وبأننا في هذه القرية سنعيش بشكلٍ طبيعي تمامًا.

تغيّر شيءٌ واحد فقط، أصبح لي بيتٌ أعيشُ فيه. ولن أنتقل كُلَّ مرةٍ في مكان.

كان لدى رسول زوجة وثلاثة أولاد إحداهم فتاة. عشتُ الفترة الأولى مُلازمًا غرفتي. أعيشُ الحُزن في عزلةٍ قاسية. أن يكون مكانًا لجسدي وألفُ مكانٍ لروحي.

أتمعنُ في سقف الغرفة لساعاتٍ طويلة. حتى تُدركني الدموع، وأشعرُ بكل شيء في آنٍ واحد. الشوق والخوف والحنين. فيضم الحُزن كُل مشاعري لأنامَ دون موعد. لم يرغمني أحد على الخروج. تُقدِّمُ زوجة رسول الطعام لي في مواعيده وهي تردد كل مُرة "متى ما أحببت الخروج فالباب مفتوح". ليست المشكلة في الباب، خارج هذا الباب ألمٌ لا يُحتمل.

لكن الألم كان له أذرعٌ طويلة فدخل إلى غرفتي على شكل إنسان.

كان ابن رسول في أوائل العشرين من عُمره. له عينان صغيرتان يُصبحان بحجم حبة الجوز عندما يغضب. ويبرزُ لونهما القاتم. وأنفٌ أحمر مع جسدٍ قصير وثقيل مثل كُرةٍ مُنتفخة.

منذُ الوهلة الأولى التي التقينا بها. أدركتُ مكامن الحقد التي تقبعُ في قلبه. هذا الحقدُ المتأصل الذي ينتظرُ منفذًا لكي يخرج. لكنه خرجَ في وجهي ولم يتوقف.

دخل إليَّ. نَظرَ لجسدي المُستلقي طويلاً. لم أتحرك من مكاني وكنتُ أنتظر ما يريده. إلى أن سألني عن اسمي. اسندتُ جسدي

على الحائط دون إجابةٍ مني. سأل مرةً أخرى بصوتٍ صارخ. سألتُ نفسي "ألا يعلمُ من أنا". لكنه فجأة بدأ يضحك بشكلٍ هستيري ثم أكمل:

" أعلم بأنك مُجرد أخرسٍ بشع. والدي لم يأوِ سوى أخرسٍ عديم الفائدة".

أكمل ضحكه وهو يضرب يديه بسعادةٍ بالغة. سعادته تطفو على عينيه وتُغرقني حُزنًا فوق حُزني. كأنما الحياة لم تكتفِ مني بعد.

كم وددتُ أن أرد. لا أريد له أن يسمعني .أريدُ للجدران أن تُنصت إليَّ. أريد أن أسمعني أنا.

كان هذا الشاب يعود كُل يوم. يدخلُ سرًا ثم يُفرغ سمومه التي لا تنتهي. ثم تبدأ الأسئلة باجتياحي. لم عليَّ أن أعيش مُختلفًا عن الآخرين؟ لِمَ تكون الكلمات سلاحًا مؤذيًا إلى هذا الحد! أن يُغرز في جسدي آلاف المرات.

بعد أن تخرجُ زوجة رسول كان يدخلُ مزهوًا. يتفاخر بعائلته وقدراته، يركلُ الطعام أمامي وهو يُردد "متسول" فيخرج وقد طُبعت الكلمة على فمي فلا أتمكن من تناول لقمةٍ واحدة.

بعد مُدة دخل إليَّ رسول وقال بعد ان جَلسَ بجانبي وهو يضعُ وعاء الطعام لي:

"إذا لم تأكل ستموت، ألم يُعجبك ما تعدُّه زوجتي؟"

هززتُ رأسي مُعترضًا. حاولَ أن يُعدد أسبابًا مُختلفة فأجيب بالنفي. طَلبَ مني أن نتجول قليلاً لكي أتمكن من التأقلم مع العالم الجديد.

لكن بعد أن عبرنا الباب بقليل شاهدتُ عيني "خاطر" ابن رسول تثقباننني من بعيد، وأنا! أشعرُ بأنني متسول فينكمشُ جسدي.

اقتربَ مني رسول وهو يَهمس:

"لقد قابلتَ ابني خاطر. هل قامَ بشيءٍ ازعجك؟".

لم أجب بالنفي هذه المرة، اكتفيتُ بإشاحة وجهي لجانب آخر. فشاهدت ابنتهُ الصغرى تلعبُ بالحجارة. ذات السادسة. جعلتني مُشاهدتها أنسى حقدي على خاطر. ببراءتها وطفولتها. تركتُ رسول يتقدم من ابنه ليتكلما. فاقتربتُ من الطفلة أقوم بترتيب الحجارة معها. شعرها الأسود الطويل بظفيره واحدة، وعيناها البنيتان الصغيرتان. أكملتْ تبني منزلها الخيالي من حجارةٍ مُرتبة. تَصنعُ مدخلَ البيت ثم الحديقة وغُرف المنزل. تضعُ في المطبخ عبوات بلاستيكية، تحملُ خيالاً واسعًا.

انهمكتُ معها. في عالمها الصغير والبريء حتى كدتُ أنسى من أنا وأين أنا، لكن صوت خاطر مثل جرس انذار، ذكرني بكل شيء.

"لا تُحاولْ الاستيلاء على عائلة أحدٍ آخر. لتعوِّضُ فقدان عائلتك".

حَملَ أخته بين يديه تبكي ثم ذهب، ليتركني يتيمًا لا عائلة له.

لن تتمكن عائلتك من حملي بين أحضانها كما كانت تفعلُ آية. لن يتمكنوا من حمايتي من الحُزن مثل أمي. ولن تصنع ابتسامتي كما كان يفعل ناصر. لن تتمكن عائلتك من تعويضي يا خاطر، لن أجد صوت والدي ولا حُب عمي.

كان المساء أثقل والليل أطول.. تغربُ الشمس ثم تطلع وأنا في مكاني، أنظرُ من النافذة لأشاهد سُحب السماء وهي تتجمع ثم تتفرق. تكُّون أشكالاً فأصنع لها أسماءً، أحادثها وأشكو إليها ثم أبكي وحدي.

في مساء أحد الأيام. وبعد أن صنعتُ من يديَّ وسادةً، ألقيتُ برأسي عليهما أمام النافذة، شاهدتُ ما قد يغير حياة رسول إلى الأبد.

كانت سلوى تلعب -ابنة رسول الصغرى- تضحك وهي تتبعُ فراشةً ملونة، تابعتها بعينيَّ أشعرُ بيديها تريدان التحليق، تلبسُ فستانًا أبيض بأزهارٍ بنفسجية تنتشر على سطحه، يتناثرُ شعرها الذي يصلُ لمنتصف ظهرها لتُصبح كلوحةٍ أبدية تُزينهما عينيها الصافيتان. كم تبدو جميلة بملامحها البسيطة.

لكنها فجأة اختفت خلف شَجرة الأرز الكبيرة، فلا منازل خلف هذه الشجرة. فقط أرضٌ مُسطحة إلى مالا نهاية. رفعتُ رأسي بعد ان أدركتُ تأخرها خلف هذه الشجرة. شعرتُ بخوفٍ لا مُبرر له. ثم ما لبث الخوف أن صعد دماغي حتى ظهرت مرةً أخرى وهي تقفز تناور الفراشة التي تأبى أن تُطيعها.

ارتختْ أعصابي وعدتُ لمكاني حيثُ يدي وسادة أضعُ رأسي

فوقها، أغمضتُ عينيَّ أستنشق نفسًا طويلاً. وما بين لحظة الإبصار ولحظة الغفوة التي لم تتجاوز جزءًا من الثانية.

شاهدتُ كل شيء!

نهضتُ كمن مسَّه شيطان. بحثتُ عن رسول أو أي أحدٍ من أولاده، لكنني لم أجد أحدًا، فتبعتُ المكان الذي اختفت فيه سلوى. خلف شجرة الأرز، ركضتُ بكل ما لأنفاسي من قوة. وما لجسدي من قوة..

وعند النفس الأخير واهتزاز جسدي الأخير. أدركتْ

بأنني تأخرت.

شهقتُ حتى امتلأتْ رئتيَّ بكل هواء العالم.

(14)

نيسان 1997

فِتنة

"أحتاجُ أرضًا طاهرة

لكي أتيمم بها ..".

تساءلت!

إن كان الجميع يتألم، من السبب بكُلَّ تلك الآلام.

إن كان الجميعُ يبحثُ عن السعادة. فمن الذي أخذها منا جميعًا!

ومن كان السبب بتدمير حياتي، ها هي حياته تُدَّمر أمام عينيَّ. كيف لهذه الأرض أن تدور لتضربنا جميعًا.

تساءلت! من يا تُرى الظالم. إن كان الجميعُ مظلومًا.

واقفًا أمامهم، أتنهد. فلا يخرجُ من جوفي شيء، لم يعدُ هناك هواءٌ أتنفسه. لكأن هواء العالم الذي اختزل في صدري قد نَفِذَ.

أمامي سلوى؛ تنام ثم تستيقظ وهي في أحضان أمها التي تبكي

بحرقة. تزداد نوباتها الجنونية، يهزها الخوف من منتصف نومها. أما رسول فقدماه تُحركانه كالمجنون في كُلِّ مكان وهو يفرك يديه حتى يكادُ يقطعهما. أما خاطر ويوسف فقد خرجا يبحثان عن الفاعل.

أنا من رأيت، وحدي أعلم ؛ وحدي يُمكنني إيجاده.

كُنت أتمتم بداخلي وعيناي لا تُفارقان سلوى ووالدتها.

"لقد رأيته أنا من رأيته" أردد بشكلٍ هستيري يدقُّ قلبي وأشعرُ بحرقةٍ في عينيَّ.

والدتها تهزها بين أحضانها وهي تهمسُ لها بكلماتٍ مُطمئنة. فستانها الأبيض قد تلوث وشعرتُ بأزهاره ذابلةً مثل سلوى.

استمرُ في حديثي مع نفسي:

"لقد تأخرت، لو كنتُ أتكلم لقلت، لكنني عاجزٌ عن فعل شيء. أنا دومًا عاجز".

تُمسِّد شعر سلوى، تحاول كتم بكائها لكي لا تشعر ابنتها فتختنق. تسقطُ دمعتي على وجنتي.

أردد:

"لقد رأيته".

يرتجفُ جسدها فجأة فتنظر إليَّ بعد أن تتوقف عن هز ابنتها، أشعرُ بالذعر. أتوقف عن حديثي مع نفسي وتزداد أنفاسي مع حِدة أنظارها عليَّ. لولا ثقتي بأنني لا أستطيع الكلام لظننتُ بأنني تكلمت وأنها سمعتني. كأنها اخترقت عقلي فشاهدت ما رأيته.

من اختطاف سلوى ولحظة اغتصابها إلى هذه الدقيقة.

نكستُ رأسي فسمعتها تقول:

"أرأيت من فعل هذا بابنتي!".

في هذه اللحظة وَقفَ رسول متدخلاً. يُلملم أجزاءه المكسورة يُحاول أن يكون قويًا حتى في صوته:

"لا تهذي يا امرأة.. أنا من وجدها".

أكمل مُهددًا لكنه لم يتمكن من إخفاء ارتجافه:

"لكنني سأجد من فعلها.. سأقتله بعد تعذيبه".

أكان إحساس أم! أيكون شيئًا أكبر عندما تَجاهلتْ كلام زوجها وأعادت سؤالها وعيناها تخترقاني كسهم:

"بروكا .. أجبْ برأسك فقط وكُن صادقًا لأجل سلوى التي تُحبك".

يُمكنني الموت في هذه اللحظة، يُمكنني تقطيع جسدي على أن أسمع كلامها، نبرةُ صوتها. على أن أشاهد سلوى تنتفضُ من الخوف، أكمَلتْ تسأل:

"هل شاهدته؟!"

لو كان بالإمكان دفنُ رأسي لدفنتُه، لكنهُ وَقعَ على صدري، أغلقتُ يديَّ بكل قوتهما حتى غُرستُ اظافري فيهما.. تشنجتُ في مكاني لا أقوى على تحريك رأسي. لكنني؛

حركته إيجابًا. فشهقا، وبكيتُ كثيرًا.

كانت إجابتي كفيلة بقلب حياتهم رأسًا على عقب، كَتم رسول الأمر عن القرية بأكملها لكنهُ أعدَّ وليمةً كبيرة جَمعَ بها كل رجالها وشبابها.

أخبرني بأن أعطي كأس الماء للرجل المطلوب، وهكذا سيعرف رسول دون أن يشكَّ بنا ذلك الرجل، كيف لي أن أدرك حجم الفاجعة التي ستحصل بسببي.

ما فعلتهُ يديَّ بهؤلاء القوم.

اجتمعوا على مأدبة ستُقدم بها لحوم أجسادهم.. تحدثوا عن مواضيع عديدة، منها وحدتهم واتفاقهم. انتشارهم وقوتهم. أصواتهم في أذني تتصادم ثم تتحد.. إلى أن تحركتُ أخيرًا أمام أنظار رسول وولديه، أحملُ كأس الماء وأمشي مُتمهلاً لكأنني أمشي على الجمر بل يكاد يكون الجمر أرحم.

في تلك اللحظة، تكاد تكون جزءًا من الثانية وقبل أن تلمسَ يديه كأس الماء كان رسول وولديه يشهران السلاح من خلفي. والجميع يقفُ ذاهلاً منهم حليم الذي يقف أمامي.. لكنه بجانب الفاعل.

وقف حليم أمامهم يتصدى لإشهار أسلحتهم، كانت الخطة من رسول أن يعرف الفاعل ثم يخطفه ويعذبه شرَّ تعذيب. أن يمتد التعذيب لشهور، لكن هوية الفاعل كانت أقوى صدمة من الفعلة. كان ابن أعز اصدقائه، ابن من رافقه في كل أعماله، الابن الذي اؤتمن على أسرارهم وبيوتهم.

لم يكُن الفاعل سوى سيف ابن حليم.

صرخ حليم:

"ما الذي تنوي فعله!؟ هل فَقدتَ عقلك".

ابنه سيف من خلفه يرتجفُ من الخوف، كغصن بانٍ في مهب الريح.

يظهرُ الجُبناء عندما تُطلب الشجاعة. وتظهرُ النوايا في المآزق.

ظَهرَ الجميع في هذا اليوم، يزأر رسول كالأسد وهو يردُّ:

"ابنك يا صديقي، قد طعنني في ظهري. ولن يردُّنا سوى رأسه".

يحاول حليم بكل ما فيه من طاقة أن يتحكَّم بعقله في هذا الموقف الشديد. يتحكم بنبرة صوته وكلماته الهادئة:

" أنت صديقي ولقد رافقتني منذُ البداية، لن أتخلَّى عنك لأجل ابني. دعنا نتكلم وحدنا وإن فعلَ سيف ما يؤذيك، سوف أعاقبه بيديَّ هاتين".

هَبطتْ الأسلحة، وهدأ الجمعُ الهائج الذي انقسم. جلسَ حليم بعد أن تنهدَ ينتظرُ منهم المغادرة وبقيَ سيف واقفًا يمسحُ وجههُ الذي تعرَّق، هذا الجبان الوضيع .الذي اختطف سلوى بعد أن وَضعَ يدهُ على فمها. هذا الجبان الذي تجردَّ من الإنسانية ليؤذي طفلة.

كُنتُ قريبًا بالشكل الكافي لأرى كل شيء.

لأرى هذا العالم الذي يُدمِر .. يُدَمَر ..!؟

وفجأة خَرجت الرصاصة. التي عَبرت الجميع لتصل قلب سيف وتُرديه قتيلاً. الرؤوس تلتفت إلى الفاعل. فلم يكُن سوى يوسف الذي لم يُنزل سلاحه من أمام عينيه.

كان حليم أشدَّ ذهولاً. هذا الرجلُ الذي كُدتُ أشعرُ بأنه جبل على هيئة إنسان. الذي لم يبكِ على أحد. الرجل الذي قَتلَ عائلتي بدم بارد. ها هو الآن يحتضن ابنه وهو يصرخُ كالمجنون. يُناشدُ السمَاء أن تُعيد روح سيف.

وقفتُ مذهولاً من رجل أصبح أضعف من أن يُقاوم موت ابنه. وكلماته عن الشجاعة قد ذهبَتْ أدراج الرياح.

عاد كلٌ منهم يجرجر مُصيبته، حليم يدفن ابنه الذي هُدر دمه، ورسول يُعالج يوسف الذي أصيب في كتفه. كان حليم يرتجفُ عندما أطلق النار، وإلا لكان أرداهُ قتيلاً.

سمعتُ يوسف الذي يتألم يُعاتب والده:

"كيف كُنتَ ستسمعهم يا والدي بعد الذي فعلوه؟ أكان يُمكنك الجلوس للحظة دون أن تنتقم!".

يوسف في أواخر العشرين من عُمره. كان يعيشُ في عُزلةٍ عن كُلِّ شيء، لم أعلم يومًا هل كان راضيًا عمَّا يحصل أم أنهُ استكان لهذه الحياة. كان له عالمٌ خاص. غير آبهٍ بأحد. لكنني أدركتُ اليوم أن عائلته هي كُلُّ حياته وأنه تقبَّل هذه الحياة لأجلهم.

رسول يجلسُ بجانب يوسف. شاردًا مُفكرًا. كأن روحه ليست على هذه الأرض. تكادُ تخترقُ السماء فلا تعود، مُدركًا لحجم المُصيبة وبأن لا شيء سيعود كما كان. يعلمُ يقينًا أن سيف هو روح حليم، وأن الأمر لن ينتهي برصاصة.

كان يحملُ كل هذا في صدره ويختنق رويدًا رويدًا.

لم يُفصح عمَّا بداخله لأولاده، اكتفى بالنظر إليَّ. مزيدًا من التفكير يعني مزيدًا من الألم، فكرت! هل ينوي إيذائي؟

أتت الإجابة في المساء، عندما انقسمت الأرض إلى نصفين، وكنتُ أنا في الوسط.

قال رسول لعائلته:

"وضبوا ما تحتاجون إليه. سنرحل".

وقبل أن يعترض أحد على كلماته كان الباب يُدقُّ بشدة، وقبل أن يفتح أحدٌ الباب تم خلعه، داهم رجلان المنزل وخلفهم يقف حليم، يضع يديه خلف ظهره ينظر والشرر يتطاير من عينيه. زال الحُزن تمامًا من وجهه، أستُبدل بوجهٍ آخر. ذاتها العينين في الجبل لكن أشد رُعبًا.

أمسكَ أحدهما جسد يوسف من ذراعه ونفضهُ من فراشه كما تُنفضُ المفارشُ الملوثة. حتى استوى بين يديه مُتعبًا يتألم. أما الرجلُ الآخر فيمسك بعنق خاطر.

يزدادُ صُراخ أمهم من الداخل وهي تُمسك سلوى الباكية. لم

أتحرك من مكاني، بل لزمتُ الحائط حتى كُدت أصبحُ جُزءًا منه. صوت رسول متوسلاً وهو يقول:

"أنت تعلم الكم الهائل من المعلومات التي أحملها في جعبتي، ستخسرها مع خسراني ولدي. سيف قد خان العهد وكان يستحق ما حصل له، لم تكُن لتقبل ذلك لو كانت ابنتك يا حليم".

اقتربَ حليم من رسول إلى أن ألتقيا وجهًا لوجه، ثم قال:

"لم تُثبت أن كلامك صحيح، كيف يُمكنك مُعاقبة ولدي دون دليل، لو شاهدته بعينيك لقُتل في لحظتها لكنك لم تشاهد يا رسول، إذًا ابني لم يفعلها".

من خلفِ كتف حليم سقطتْ عينا رسول عليَّ، بات موتي قريبًا. كلمة واحدة من حليم ولن أبقى حيًا لثانية واحدة.

مع كل نفسٍ من أنفاسي كُنتُ أنتظر انطلاق الرصاصة لتخترق قلبي، قال:

"لديّ شاهد، هو السبب في مقتل ابنك".

طلبَ منهُ حليم أن يُفصح عن اسم الشاهد، كان غاضبًا لدرجة أن البيت يهتزُّ مع صوته، أخبره رسول أن ينتظر نصف ساعه لُيسلمه الشاهد ثم ذهبوا جميعًا ينتظرون وعد رسول. ينتظرون رأسي.

بعد أن ذهبوا تقدم رسول إليَّ فادركتُ بأنني أبكي عندما قال لي:

"لا تقلق، لن أقوم بتسليمك. لقد كان لإبعادهم قليلاً عنا والتفكير بحلٍ يُخرجنا من هذا المأزق".

هل يُمكن حقًا! أن يهتم بي أحد، أن لا أكون تضحيةً كما كُل مرة، أيمكن لرسول أن يحفظ لي ما فعلتهُ لأجل ابنته. شعرتُ بالغبطة وهو يضمني إلى صدره وأنا أسمع من خلفه اعتراض خاطر دون أن آبه لكلامه، فهناك من يحمي ظهري من الطعنات.

تذكرتُ بعد هذه اللحظة كيف قام الشاب الذي آواه والدي بخيانته، لم يُسامحه والدي أبدًا. لا يُسامح المرء من يخونه.

بعد مدة قصيرة خَرجَ رسول إليَّ وأمسك بيدي وهو يضعُ رسالة وبدأ يقول:

"أعطِ هذه الرسالة لحليم ثم عُد إلي. سنغادر عند عودتك، هذه الرسالة يا عزيزي ستُخلصنا جميعًا. أنا أعتمد عليك".

في الخطوات الأخيرة وعندما وصلتُ منزل حليم كنتُ أقلِّب الرسالة بحروفها المُبهمة .كان جالسًا عندما وصلت يعدُّ الوقت المُتبقي. عندما لمحني آتيًا إليه وقفَ واستلم الرسالة مني. قرأها سريعًا تلك الكلمات التي لم أتمكن من قراءتها كل الوقت الذي مشيته.. أطرقَ بصره ثم فركَ يديه ببعضهما وهو يعجنُ الورقة ثم هَوتْ يده على وجهي. اوقعتني اللكمة أرضًا كأنني غُرزتُ فيها. احتجتُ مزيدًا من الوقت لأفكر، والمزيد لأشعر بجسدي فأقف.

استويتُ أمامه كأنني لم أقع، فنفثَ جامَ غضبه في وجهي:

"إن الرسالة تُخبرني بأنك الشاهد. أتنتقم مني يا بروكا! ظننت

بأنك نسيت، بأنك على أقل تقدير ستحفظ ما فعلتهُ لأجلك، لقد أجمعوا على قتلك. لكنني وحدي من آويتك، أنا الذي قمتُ بحمايتك. انظُر ماذا فعل رسول بك! لقد أرسلك إليَّ لأقتلك. هذا هو الرجل الذي فضَّلته عليَّ. انظر ماذا فَعل!؟"

يدور. يتوقف ثم ينفثُ أنفاسه الحارة. تجحظ عيناه فينظر إليّ. كان على حق.

لقد طعنني رسول، تمنيتُ أن تبلعني الأرض أو تمتصني السماء فلا أبقى هُنا أمامه.

كانت المرة الأولى التي لم أخفْ بها من مواجهة الموت، هذه المرة الألف بعد الأولى، كان يبدو الموت صديقًا حميمًا أحتاجُ عناقه.

أمرَ أحد رجاله بحبسي في غرفة ثم توارى عن أنظاري، وبعد مدة وجيزة أخرجوني لأرى ما سيذهلني، سيجعلُ الكون ينغلقُ أمام عينيَّ ثم يُفتح كنافذةٍ يلطمها الهواء.

(15)

نيسان 1997

انقسام

وقفتُ أشاهدهم أمامي، يصطفون مثل غربانٍ تنبأ بالموت، بردائهم الأسود وأغطية رؤوسهم السوداء. انقسموا لكي أعبر من وسطهم. فرأيتُ ما تنبأت به وجوه هذه الغربان. كانت عائلة رسول!

يقفون كما لو كانوا يمتثلون أمام قاضي القضاة. رؤوسهم كأنما ينقرها الطير وأجسادهم مُتعبة. عادت لي تلك الصورة من ذلك الماضي البعيد. في الجبل! عيناي ترى أولاد عمي الذين يترنحون من الألم. الدماء على جبين أمي وصرخات والدي التي ملأت الجبل. ثم! صوت الرصاص وأجسادهم تهوي على الأرض.

شعرتُ بجسد حليم وهو يقفُ بجانبي، برداءٍ يُشابه رداء البقية. لكأن اليوم يوم عزاء. قال بصوتٍ يشوبه الهدوء مع الريبة:

"لقد أتيتُ بهم لأجلك. ظنوا بأنني سأقوم بالتفريط بك والعفو عنهم، لكنهم كانوا مُخطئين".

أمسك يدي ثم بَسطها ووضع السلاح فوقها. رأيتُ مع السلاح

وجه يونس، ذلك الرجل الذي قتلته انتقامًا لعائلتي. أيمكن لذلك أن يحدُث في حياةٍ واحدة! إن ما حدث معي يحتاجُ ألف حياةٍ ولن تكفي.

كيف لي أن أعيش مع قتلة عائلتي، أن أحبهم رغم كُلِّ ما فعلوه. أن أعيش عالمهم الآخر ثم أخطفها منهم! لم أنو الانتقام يومًا. لم أجرؤ على التفكير به، وها أنا أجدُ القدر يضعُ الانتقام نُصب عينيَّ.

تقترب أنفاس حليم من أذني وهو يهمس:

"اقتلهم، نحنُ لا نُسامح الخونة".

يقفون أمامي دون همسٍ أو كلمة، لم لا يصرخون أو يبكون! لم لا يتوسلون الحياة منَّا! عيونٌ خاطر تخترق الأرض فلا تصعد. ورسول يحتضن سلوى حتى يكادُ يُدخلها حُجره لكي لا تُشاهد أو تسمع شيئًا. هذا الرجل الذي قدَّمني ضحيَّة لأجل عائلته. زوجته ويوسف بجانب بعضهما لا يجرؤان على فعل شيء.

كان الحقد ينمو في قلبي، كما تنمو النبتة في الوحل.

أغلقتُ يدي على السلاح، ثم صوَّبتهُ أمامهم. رُغم كُلِّ الحقد الممتلئ في صدري لم أقو على إطلاق رصاصةٍ واحدة. أي ملاكٍ يعيشُ في جسدي يمنعُ جيوش الشيطان من احتلالي.

ما كانت تُعدُّه زوجة رسول لي، عينا سلوى الصافيتان. أنزل السلاح رويدًا رويدًا. قال حليم بغضبٍ يحاول السيطرة عليه:

" لن تعيش لا أنت ولا هم، إن لم تفعلها، سأقتلك معهم".

تمكَّن من السيطرة على صوته وهو يُمسك بيدي:

"سأساعدك على التصويب وأنت أطلق النار".

الفرق كان في طولي، الذي يُقارب طول جسده. وفي إدراكي الذي نضج. عن ذلك الطفل الذي كان يقفُ أمام يونس ينتظر انتقامه.

رنّت كلمات يونس في أذني "لا تفعلها أنت".

ومع هذا النضج وهذه الذاكرة، تذكرت بأنني لم أفعلها. تذكرت كما هذه اللحظة المُكررة يد حليم وهي تُطلق النار، لم أقتل يونس، لم أفعلها.

وفي لحظةٍ واحدة، انتفضتُ من أمام حليم وصوبتُ سلاحي في وجهه. صرختُ كذئبٍ جريح ووقفتُ أمام عائلة رسول.

كان يُمكنني رؤية وقع الصدمة على حليم الذي أمر رجاله أن لا يطلقوا النار. لم أفعل ذلك لأجل رسول. فعلتها لأجلي، لأجل كلمة يونس ولأجل قلب رفيق، فعلتها لأجل رحمة التي حرمني منها. لأجل عائلتي التي خذلتها كثيرًا.

انطلقت الرصاصة الأولى. لكنها لم تكن مني، انتظرتُ الجسد الذي سيهوي فلم يكُن سوى جسدي، أصابتني الرصاصة في كتفي شعرتُ بها مثل وخزةٍ شديدة تخترق عظامي فتحرقها. وقعتُ وبدأ ما حولي يُظلم كما لو أن شمس الأرض تغيب، استمر إطلاق النار.. صُراخ .. ثم رصاص فأرجلٌ تركض من فوقي، استدرت لأرى اللحظة الأخيرة من وقوع رسول وفي أحضانه سلوى.

استيقظتُ وبدأت الشمس تُشرق في عينيَّ، تعود حواسي إليَّ الواحدة تلو الأخرى. كدتُ أن أنسى لكن الألم في كتفي أعاد لي ذاكرتي. ألتفتُ حولي قبل أن أنهض فرأيت الجُثث التي تفترش الأرض.. كانت الرؤية كفيلة بدبِّ الألم في كُلِّ قطعةٍ من جسدي.

نهضتُ مُستندًا على يدي ومشطتُ الجُثث بعينيَّ، منها ما شوه الوجه حتى أخفى ملامحه ومنها ما اخترق الجسد فحوله لكتلة دماء، لا أعلم من أين أتت الجثث الأخرى وكيف حصل القتال. إلى أن رأيت رسول وعائلته، زحفتُ إليهم بيدي الأخرى.. أريد الوصول إلى سلوى التي لا تزال في أحضان والدها. أحتاج لعناق جسدها الذي فقد الروح.

وصلت ووضعتُ رأسي بجانب رأسها، هذه الملاك الصغيرة. بكيت إلى أن أخترق الحُزن قلبي. نشجتُ فاهتز الجسد الذي تحت يدي. لم تكُن سوى سلوى!

نَظرتْ إليَّ. كان جزءًا من رأسها مخثرًا بالدم فأدركتُ أنها دماء والدها، كانت ترجف بشدة وما أن رأتني حتى ألقتْ جسدها في حضني. بكتْ كثيرًا وارتجف جسدها أكثر. كانت بين يديَّ -أنا في تلك الشاحنة- رضا.

يُمكنني أن أدرك يا سلوى ما يُخالج قلبك الآن! يُمكنني أن أشعر بما تشعرين به أمام فقدانك كُل شيء.

لم أرى بين الأموات جثة حليم. فعلمتُ أن الشيطان لا يزال حيًا وإن الأرض لم تُطَّهر بعد.

(16)
حُلــم

قـام رجلٌ طاعنٌ في السن بمعـالجـتي. أخـرج الرصـاصـة من كتفي دون تخدير. فشعـرتُ بألمٍ شديد. لم تتركني سلوى في هذه الأثناء وبقيتُ مُتشبثة بيدي الأخرى، كأنهـا تربط وجودي بوجود عائلتها. أو أنها ستصلُ إليهم ذات يوم إن بقيت معي.

بعـد حلول الليل كـانت الجـثث قـد تـوارت تحت الثـرى، دون أن يعلمَ أحدٌ عنها. الأرملة تتزوجُ بعد مقتل زوجها وتستمرُ حياتها.

كُنا نعيشُ لدى هذا الرجل العجوز الذي قام بمعالجتي، يعيش وحيدًا. يمتلكُ الحكمة والصبر.

أمـا سلوى التي لم تُفـارقني بعـد تلك اللحظة. فكان يؤذيني بكاؤها ونوبات صراخـها ليـلاً. تُمسِكُ بي وهـي تنادي والدتهـا. ثم تنام بعد أن يُنهكها التعب.

تذكرتُ جملة أخيها خاطر "إن كُنت قد فقدت عائلتك، فلا تحاول الاستيـلاء على عـائلة أحـدٍ آخر"، لم أكن أعلم بأن عائلته المتبقية في سلوى ستكون عائلتي.

بدأ تعلُقي بهذه الصغيرة ذات يوم. عندما أمسكتني وهي تقول:

" لا تتركني".

كان الخوف باديًا على عينيها وانتقل لجسدي.

هززتُ رأسي نفيًا وأنا لا أعلم حقًا صِدق ما أفعل.. عانقتْ قدميَّ بيديها وأكملت:

" لا تمُت أرجوك".

بقدر تلك الأنوار التي أشعلت في حياتي ثم انطفأت. أدركتُ كيف أكون نورها الذي تخاف أن ينطفئ.

وفي ذات الليلة راودني الحُلم الغريب. كانت النيران تأكلُ المنازل وشعرتُ بلهيبها يصلُ إليَّ وأنا على بُعدٍ منها. وفي وسط تلك النيران رأيتُ رحمة. كانت تقف وسط النيران دون مقاومة ودون أن تهرب. صرختُ أنادي اسمها، فخرجَ صوتي. كان يُمكنني سماعُ صوتي بوضوح، رُغم قُدرة الحلم على أن يأخذنا بشكل كامل من الواقع. رغم أنني صدقت رؤية رحمة، إلا أنني توقفتُ عند صوتي، كان أكبر من أن يُصدقه الحلم.. أمسكتُ حنجرتي وأعدتُ الصوت من جديد، يُمكنني تذكر تلك اللحظة بوضوح، إحساسي عندما نطقت. تلك القدرة على الانفجار من الداخل.

أعدتُ النظر إلى رحمة لكنني لم أجدها، توارت تحت النار. وخلف النيران كانت عيونهم جميعًا.. جميع من فقدتهم. كانت من بينها عيون آية، ناشدتها أن تعود.. مددتُ يديَّ أبكي:

" آية لا تتركيني، لا تموتي أرجوكِ".

كانت جملة سلوى تُعاد بصورةٍ أخرى، إنها مطلبي الذي لم أطلبه من أحد.

اقتربتُ منها ورأيت ملامحها، للحلم كُلِّ القدرة على إعادة لحظاتٍ كما لو كانت واقعًا.

ولأنها بقيت صامتة، طلبتُ منها أن تقصَّ عليّ إحدى حكاياتها. لكنها اقتربتْ مني وهمستْ:

"اهرب.. إنهم قادمون".

استيقظتُ على يدٍ صغيرة تهز جسدي، كانت سلوى تُخبرني بأنها خائفة.

بقي جسدي مُتأثرًا بما رأيته وسمعته. فها هي أختي عوضًا عن قص الحكايات طلبت مني أن أهرب، لم يعد أي شيء كالسابق. ألم تقل لي آية "إن هذا العالم يحملُ أحلامنا التي نلتقط منها كل ليلة، إنها كالفاكهة المُعلقة على الأشجار.. بعض الأحلام تكون حلوة وبعضها مُرَّة لكنها بكل أحوالها لا تؤذي.. إنها فقط مُجرد أحلام".

كانت تقولها لي لكي لا أبقى خائفًا من النوم وأن لا أصدق كل ما أراه في أحلامي.

يُمكنني أن أنفي كلامها اليوم، إن الحلم يُعادل ألم الواقع إذا كان جزءًا من ماضٍ لن يعود.

أغمضتُ عينيَّ وبجانبي سلوى لأرى من جديد والدي غاضبًا وجسده ينتفض ثم يهدأ كمحركٍ عتيق لكنني هذه المرة أرى كل شيء وانا مستيقظ، تلك الذكريات!

أخبرَ حسن والدي بأنه يحب آية ويريد أخذها معهُ. يُريد أن يتزوجها، هدده والدي بأنه سيُدخله السجن إذا لم يخرج من المزرعة.. في ليلتها دخلتُ إلى أختي فوجدتها تمسحُ دموعها لكي لا أراها. ساعدتني على ارتداء سترتي وهي تُمازحني وقالت لي بأن أحضر حطبًا كثيرًا مع ناصر لأن البرد سيكون شديدًا الليلة ولن أحتمله. كانت تبتلعُ الدموع كما تُبتلع الأمواج في وسط البحار.

دَخلَ ناصر وأخبرني أن أنتظره في الشاحنة قليلاً، لكنني خرجت وبقيتُ واقفًا خلف الباب، فسمعته يقول:

"لأجل ماذا تبكين".

لم أتمكن من رؤيتهم، لكنني سمعتها تقول بأنهما سيتزوجان. لن تستمر دموعها وبأنها ستتجاوز ما حصل معها، يُمكنني الجزم من صوت آية بأنها لم تكُن مقنِعة بما قالت. كان صوتها مُختنقًا يكاد يخرج. قال ناصر بعد أن تنهد:

"ألم تشعري بالذنب تجاهي عندما ذهبتِ إليه! أن تخوني زوجك!".

أصبحَ صوته أعلى صارخًا مُنفجرًا ومُتألمًا:

"كُنتِ تعلمين بأن حبكِ نَبتَ في قلبي منذُ الطفولة. كبرتِ معي وفي قلبي يا آية. كُل لحظةٍ أنا أحاكم نفسي. ما الذي فعلته! بماذا أخطأت! لم تخليتِ عني!!".

حلَّ صمتٌ قاتل، ثم عاد صوته المُرهق:

"لم تتركي لي شيئًا أعيشُ لأجله".

صَرخ فجأة:

"لا شيء".

أجابته بِحدة:

"لم يبق على زواجنا سوى يومين. لن تنتظر كثيرًا بعد الآن".

يُمكنني الشعور بالحزن في قلب ناصر من صوته الذي هدأ:

"لكنكِ لا تعلمين بعد، أنني لا أريد الزواج بك. لم يُعد في داخلي أي حُبٍ تجاهك أو حتى شفقة".

لم ينتظر إجابتها ونهضَ تاركًا إياها في حيرة. وَجدني واقفًا خلف الباب ووجدتُ عينيه تدمعان كأنهارٍ على خديه. تأكدتُ بذلك بأنه لم يقُل الحقيقة، وأن حب آية لا يزالٍ يشتعل في قلبه.

(17)
تموز 1997
ظُلمَة

"شاهدْ الموتْ

من عيني السماء، إياكَ أن تَشهدَ

على الموتْ".

كُلما تقدَّم الزمن، أتمنى أن يعود لو على أقل تقدير المرحلة التي تسبق هذه المرحلة، حتى وإن كان مُشبعًا بالألم، سيكونُ أقل ألمًا من الآن .

كُلما ظننتُ بأن هذا أقصى حدٍ للموت الألم والفاجعة. تأتي المرحلة الأقصى للفاجعة الألم والموت.

كانت علاقتي بسلوى مصدر قوةٍ وضُعف، أرى الحياة بوجودها وأخافُ فقدانها بأي لحظة، هذه العلاقات التي تُحدد المصير. تحملتُ الوقوف لساعات لأجل تأمين طعامها. تحملتُ الجوع والعطش والقهر.

لكنها كانت تحنو عليَّ كما لو كانت كبيرة، تعوُّضني عن الجوع والعطش والقهر .

تعلَّقتْ بي بشدة، تبتسم لي كُلما تراني. هذه الابتسامة التي تُبدد جبالاً من الألم، تُعانقني ذلك العِناق الذي يمدُّني بالقوة.

وفي لحظاتٍ كثيرة كُنتُ أتخيَّلُ تلك السنين التي ستكبرُ وهي أمامي، أن أعتني بها للأبد، أن أخرجها من هذه الهاوية لتعيش حياتها بأمان. كم حلمتُ كثيرًا بوهبها حياةً أخرى! كم ليلةٍ فكرت كيف يُمكنني الهرب بها من هُنا!

لم يكُن للأفكار من جدوى، لولا الفاجعة الكُبرى.

دخلتُ إلى اجتماعهم وجلستْ. شارد الذهن، حتى سمعتُ صوت غضبٍ يخرجُ منهم. لكن حليم لم يقُل سوى جُملة واحدة:

"غدًا سوف نُرسل بعض الأشخاص للسماء".

لم أفهم، ولم أعِ ما حصل. ولكنني فهمتُ كُلَّ شيء في اليوم التالي، قمتُ بمساعدتهم بتحضير الأسلحة والبنادق والمناجل. ثم خرجنا من القرية قبل منتصف الليل بقليل، الجميع يرتدي ملابس سوداء أو القشابية مع أقنعة.

كانت الأنوار تُحيط القرية التي ذهبنا إليها. وعن مسافةٍ لا بأس بها، كُنَّا نراقب من بين حقول البرتقال إلى أن انطفأت أنوار القرية كُلها. بشكلٍ مُخيف. لم يبق سوى نور القمر وليلٍ هادئ.

حليم يطلبُ مني أن ارافقه، لازمته بكل خطواته. إلى أن دخلنا القرية بما يُقارب الثلاثين رجلاً وأنا. ما حصل فيما بعد! لا يُمكن وصفه، لا يُمكنني تصديق أن ذلك يحصل من بشرٍ ولدوا على أرضٍ واحدة.

لم أتمكن من فعل شيء، كُنتُ فقط أشاهد وسلاحي بين يديَّ. هُنا وهناك. رأسي يدور بينهم.

وَقفَ حليم على حجر وبدأ يصرخ:

"لن ينقذكم أحد، سوف نُرسلكم إلى السماء واحدًا تلو الآخر. سنقتلُ أطفالكم ونسبي نسائكم. لن يجرؤ أحد بعدكم على مُعارضتنا".

وبعد أن أتمَّ كلماته، انتشر الرجال من بيتٍ لآخر. صوت الصراخ أعلى، شعرتُ بالحيوانات تهرب فَزِعَه. شعرتُ بالأشجار ستهرب لو كان لها قدمان.

صوت صُراخ نساء تُفقد عفتهن، صُراخ أطفال استيقظوا من نومهم. رجلٌ يخرج وبيده رأس أحد الأطفال يقطرُ دمًا، فُجَّ من منتصفه .

رجلٌ آخر يجرُّ امرأةً من شعرها يُدخلها إحدى البيوت بعد ان قامت بالهرب من بين يديه، صُراخ، صُراخ، صُراخ.

لم يكُن لصراخ أي جدوى. لم يُلبِّ أحدٌ ندائهم.

دخلتُ منزلاً خلف أحدهم دون وعيٍ مني، حيثُ رأيتُ ما لا يُمكنني نسيانه.

مسَكَ أحد الرجال طفلاً رضيعًا وقام برميه إلى الحائط حتى سمعتُ صوتًا عاليًا خرج من جسد الطفل. ثم سَقط ارضًا وقد فُتِحَ رأسه. أما والدته التي وقفت مفزوعة تُريد الوصول لجسد ولدها.

كان قد مسكها من شعرها وضربها بشدة حتى انهارت قواها. وعندما بدأ بتجريدها من ملابسها. خرجتُ ألهثُ أنفاسي بجسدٍ يرتجف خوفًا.

وقفتُ مفزوعًا. ألتفتُ يمنةً ويُسره . على أضواء بعض كشَّافاتهم تُريني الدماء والأجساد التي تُقطَّع. لم يُبكني شيء، كان الأمر مُفزعًا أكثر من قدرةٍ بسيطة على البكاء.

إلى أن وقَفَ طفلٌ قد يُقارب الرابعة من عُمره بجانب جسد والدته. كان الضوء مُسلَّطًا عليهما. جسدُ والدته مُلقىً على الأرض. إحدى قدميها قد كُسرت والتفَّ إلى الخلف حتى يكادُ يكون بجانبها. ملابسها ممزقة وحجاب رأسها يقطرُ دمًا.

لم يقترب الطفلُ منها. استمر يبكي وهو ينظرُ إليها. يستمرون بالقتل والصراخ يعلو أكثر. لم يتحرك الطفل!.

كيف لي أمام كُل هذه الفاجعة أن أبكي الآن. في هذه اللحظة.

هزَّني فجأة أحدهم، يوبخني صوتٌ يقول:

"هل جننت، لِمَ تبكي لأجل الطفل!".

لم أكُن أبكي لأجل الطفل. لقد كُنتُ أبكي معه.

لم يكُن جسد والدته المُلقى هُناك، بل جسد والدتي. بكيتُ أكثر، حتى كُدتُ أموت من شِدَّة الألم.

لم يهدأوا إلا بعد مُدة. جمعوا المجوهرات من المنازل بمساعدة امرأتين انتظرتا إلى أن انتهوا من كُلِّ شيء، ثم جمعتا المجوهرات

من أجساد النساء. وضعوا الماشية في الشاحنات. سرقوا البيوت كُلها بعد أن دمَّروها.

عُدنا. لكن هذا اليوم لن يُغادرني للأبد، ولن يعود أي شيء كالسابق بعد هذا اليوم.

أين رضا!

أتوسل إليكم أعيدوني إليه.

(18)

أيلول 1997

الراعي

"ما بين موتٍ وموتْ

تهطلُ غيمة

وتشرقُ شَمسْ".

جالسًا وأمامي سلوى واقفة، ما بين هندامها في السابق والآن فرقٌ كبير. نحُلَتْ أكثر وَبهتُ بريق عينيها. لم أرى في عينيها إلا مشهدُ ذلك الطفل، يُعاد أمامي كُل لحظة. يُفتِّق قلبي حتى يكادُ يتلاشى من صدري.

لكن لا ذنب لسلوى لتشهد انهياري دون أن تعلمْ السبب. لذا قاومتُ الألم وابتلعتُ الدموع والآهات. أريدُ أن أكون قويًا لأجلها.

دَخل العجوز وهو يُنادي سلوى لتساعده في المسير. ساعدتهُ حتى وَصل إليَّ ثم جَلس، كان أكثر الوقت مُنكفئًا على نفسه حتى كُنتُ أشك بأنهُ إما مجنون أو مُتعبِّد. نظر إليَّ بعيون ملؤهما الحُزن:

"يا بُنيَّ. أنا أعلم ما الذي حدث البارحة".

توَّجه بنظره لسلوى ثم قال لها أن تذهب لتناول الطعام في المطبخ، فقد حضَّر لها الحساء الذي تُحبه. ذَهبتْ ثم أكمل:

"لقد اخطأوا بهذا الفعل كثيرًا.. ستحدثُ القيامة قريبًا".

لم يسعفني الصبرُ أكثر أمام كلماته، عادتْ الدموع لمقلتيَّ تحاولان الصمود. تنهدَّ طويلاً كأنهُ شاهد المأساة بأمِّ عينيه:

"لم يبدأ الأمرُ هكذا، لقد بدأ بأناسٍ أرادوا التغيير، والحق.. لكنه آل لما نحنُ فيه بسبب أشخاصٍ أنانيينٍ، أرادوا الموت والفتنة".

لم أدرك حينها أكان مجنونًا أم مُتعبدًا ، أيقول الحقيقة أم يهذي.

نَهضَ فوقفتُ أساعده ليمشي. لكنهُ ربتَّ على كتفي وهو يبتسم:

"يُمكنني الوصول وحدي. يا بُنيَّ، وأنت أيضًا يُمكنك ذلك".

تركني في حيرةٍ من أمري، دون أن يشرح مغزى كلماته.

بعد مُدة انتقلنا لمكانٍ جديد أكثر بُعدًا عن المُدن وأكثر قُربًا من الغابات والجبال. كان اهتمامي بسلوى كبيرًا، لذا لم تُفارقني ابدًا، وعندما وصلنا بدأتْ تكتشفُ المكان بعينين أكثر حيوية وحُبًا. جَعلتْ قلبي سعيدًا وان لم يبدُ ذلك على وجهي.

وقفتُ أمام حقول البرتقال اتأملها ثم أخذتُ أمشي بين

سربين. الهواء عليل والشمسُ تُرسل أشعتها لتدفئ الأبدان. ولكنني شعرتُ فجأة بأن أحدًا ما يُلاحقني ،ألتفتُّ ولم أجد أحدًا .استمررتُ بالمسير والتأمل في الخلق البديع. بعيدًا عن كُل شيء، لكن ذلك الاحساس الغريب بأن أحدًا ما يتبعني لا يزال. خَفق قلبي خوفًا، فلا صوت لي أنادي به. وقدماي المُتعبتان لا قُدرة لهما على الركض سريعًا، قَفزتْ لذهني كُل الأفكار السوداوية إلى أن لمحتُ طَرف ثوب لفتاة يتوارى خلفَ إحدى الأشجار. لم تُلاحظ بأن ثوبها ظاهر لهذا لم تتحرك.

تحركتُ سريعًا ثم اختبأتُ عن مدى رؤيتها، عدتُ إلى الخلف لكي أشاهدها. كانت تضعُ حجابًا على رأسها .تلبسُ ثوباً يصلُ لركبتيها وتحتهُ سروال من القماش، أطلتْ برأسها من خلف الشجرة. عندما لم تجدني خَرجتْ بسرعة تَبحثُ بعينيها. لم أتمكن من رؤية وجهها. لذا اقتربتُ أكثر حتى أصبحتُ خلفها تمامًا، شَعرتْ بوجودي فَحاولتْ الهرب. حاولتُ أن أمسكها بسرعة، تمكنتُ من إمساك حجابها فَسقطَ عن رأسها مُظهرًا شعرها البنيَّ الذي تساقط على كتفيها. وَقفتْ مذهولة مما جعلني أتمكن من تكبيل يديها بيديَّ ومنعتُ حركتها. قاوَمتْ تُريد أن تهرب، لكنني انتظرتها لتقول شيئًا وما السبب الذي يجعلها تُراقبني. لم تقل سوى كلمة "اتركني" بصوتٍ خافت.

كُلمَا قاوَمتْ أكثر كُنت أشدُّ يديها أكثر، أردتُ رؤية وجهها فحَاولتُ بجسدي القويُّ أن أدير جَسدها إليَّ. لكنْ مقاومتها الشديدة أسقطتها ارضًا وأسقطتني فوقها.

فُزِعتُ من جَسدي المُلقى فوقَ جسدها وعندما هممتُ بالنهوض وأنا أسندُ يدي رأيتُ وَجه تلك الفتاة!

تَجمَدَتْ حَركتي تمامًا وهي سَكنتْ مكانها، عيناها. أنفها، فمها ووجهها! شعرها وجسدها النحيل.

ازدادتْ حرارة أنفاسي التي شَعَرْتْ بها، سَقطتْ دمعةٌ من عينيَّ واستقرتْ على وجنتها. هَطلتْ دموعها بصمتْ.

تأملتها، تأملتُ هذا الخلق البديع، الذي يُمكن من خلال عينيها فقط أن يُحيي كل ضلعٍ في قلبي، من خلال هاتين العينين فقط أشعرُ بأن لدي قلب.

سَقطَ جسدي بين أحضانها، دفنتُ وجهي وأنا أبكي. تنزلُ دموعي دون توقف، أنشجُ الوجع والشوق والفرح في آن.

شعرتُ بيديها تطوقانني وهي تقول:

" وعدتك أن لا أذهب وذهبت، بحثتُ عنك في كُل مكان. تألمتُ كثيرًا عندما فقدتك.. لا تبك يا عزيزي، لقد جمعنا القدرُ مرةً أخرى".

أبكي كما لو كنتُ طفلاً بين أحضان أمه، أشعرُ بالأمان رُغم كل هذا البكاء.

كم وددتُ أن أخبرها ما فَعل غيابها بي، أن أخبرها بحجم الشوق الذي كُنتُ أشعر به كل يوم. بأنني أتقيأ الألم ثم أبتلعه وحدي، لأنني وحدي.

كم وودتُ أن أترك جسدي وأسكن في جسدها كي لا تتركني أبدًا، أن تنفصل روحي عني وتبقى معها.

آهٍ يا رحمة، لو تعلمين بأن العالم ينفصل ويجتمع بين مُقلتيكِ وبأن الحياة والموت لا يعنيان شيئًا وأنا بين أحضانك. بأن حضورك يُقدسني، يُحيطني مثل هالةٍ نبوية.

أخبرتني رحمة الكثير، قالت لي أيضًا بأنها اشتركت بإحدى المجازر الجماعية لأحدى القُرى حيث قتلوا ما يُقارب مئتي شخص. أخبرتني بأنها كانت مع النساء اللواتي جمعن المجوهرات، وبأن الجُثث التي امتلأت بالدماء لا تُغادرها كُلَّ ليلة.

كُنا نجلسُ أمام إحدى أشجار البرتقال، عندما أخبرتني بسرها الأعظم. قالت لي بأنها لا تَمُتُّ بصلةٍ لعائلتها وأنهم أخبروها بأن والديها ماتا وقاموا هم بتربيتها، أخبرتني بأنها لا تُصدقهم أبدًا. وتأكدت شكوكها بعد أن شاهدتهم يقتلون النساء وفي أحيانٍ يقومون بخطفهن.

في هذه الشهور القليلة التي فقدتُ بها رحمة، شعرتُ كأنها عادت بعد سنين. أكثرُ نُضجًا. رُغم أنها فقدت كُتبها، لكن التجربة علمتها الكثير. أصبحتُ بعقلٍ يحملُ الانتقام بين جنباته، أو تُفكر بطريقةٍ للهرب كُلِّ يوم كما أفعلُ.

قالت لي:

" لقد فكرتُ بك كثيرًا. وكنتُ أشعرُ بأننا سنلتقي، لكنني عندما رأيتُ الموت بأمِّ عينيَّ شعرتُ بفقدان الأمل واليأس. بأن هذا العالم لا يحملُ السعادة لذا لن أبحث عنها، لقد سلمتُ نفسي للحُزن".

ابتسمتْ لي ثم أكملت:

" لكنك عُدت، وعادتْ السعادة".

نهضتْ تُريد العودة بعد أن وعدتني بأن نلتقي كثيرًا. مَشتْ بضع خطواتٍ ثم التفتت إليَّ بنصف جسدها:

" لن أجعل أحدًا يأخذك مني".

نبتت الجذور التي ظننتها ماتت، لكنني الآن بتُّ أخاف أكثر.. جربتُ الحرمان أكثر، مررتُ بالهاوية وأخاف العودة إليها، أصبح الفرحُ مُنغصًّا.. ناقصًا، مُخيفًا.. كرقصةٍ على النار.. مثل جسد أمي الطاهر الذي واراه الثرى.

(19)

التِيــه

"في لحظةٍ ما، يغيبُ الألم كأنه لم يوجد.

في لحظةٍ ما،

عشتُ السعادة كأنها دهر."

مَضتْ أيامٌ هادئة لا يشوبها أي تعكير. كان الجميعُ يُمارس حياته بشكل طبيعي، أملتُ أن يبقى الأمرُ هكذا إلى الأبد. لم أعد أطلبُ من الماضي أن يعود. لا أريد سوى أن يستمر هذا الحاضر.

سلوى وَجدت بعض الرفيقات الصغيرات اللواتي تُشاركهن اللعب. كانت حيويتها تعود شيئًا فشيئًا. نحنُ رُغم الفقد نجدُ أننا مُلزمون بالحياة، وبأن الألم الذي لا يُحتمل يجعلنا نركضُ للسعادة أينما كانت. ليسَ خيانةً لمن فقدنا، لكن وفاءً لتلك الروح التي تسكنُ أجسادنا تتلوى من الألم.

تأقلم الجميع بعد الفقد، حتى أنا. كُنتُ أقابل رحمة، أنسى معها كُلَّ ما حصل. أشعرُ بالجنة قد نزلت بين كفيَّ. وهي تتحدث؛ أسأل نفسي ألف مرة. كيف يولد هذا الشعور بداخلي كُلما أراها! كيف لهذا العالم أن يتلاشى فلا أرى سواها.

يُمكنني أن أدرك الآن ما كان يشعر به ناصر تجاه آية. كيف

كان يتحملُّ كُل شيءٍ لأجلها، يُمكنني أن أعذر تلك الدموع التي كانت تملأ مُقلتيه كُلما تحدَّث عنها. فها أنا هُنا. أمامي رحمة تُبدد الحُزن، تحملني بين ثنايا ثغرها الباسم.

جَعلتُهَا ترى سلوى التي أخبرتها ما حَصل مع عائلتها وأنا أهزُ رأسي لتنظرُ إليَّ والحُزن بادٍ على وجهها.

تقول:

"لم يتركوا أحدًا، ولليوم لا نعلم من المظلوم ومن الظالم. الجميعُ يُقتل دون استثناء".

تغفو سلوى بين أحضان رحمة، تنظرُ إليَّ ثم تقول:

"من الجميل أنك آويت هذه الفتاة المسكينة، إن الأطفال هم المأساة من كُل هذه الحرب. إن لم يُقتلوا، تُقتل طفولتهم. يكملون حياتهم أيتامًا كما حصل معي".

في حقل بعيد يضمنا ثلاثتنا. أيمكن أن أخبر رحمة عن أمنياتي! رُغمً أن لا قُدرة لي على الكلام. لكنني كُنت أشعر بأنها تفهمني.

اللحظات السعيدة لا تستمر، أدركتُ ذلك بعد أن طَلبني حليم لإحدى اجتماعاتهم. في نظراته، يُمكنني أن أرى كُل الماضي في نظرةٍ واحدة، أن أدفن نفسي كُلما رأيتُ عينيه.

لكنهُ التفتَّ إليَّ وهَمسَ في أذني كما كان يعتادُ أن يفعل كُلما أراد تفريغ سمومه بداخلي:

" أنا أعلمُ بأنك تُقابل فتاةً اسمها رحمة".

حبستُ دهشتي وخوفي. نظرتُ إليه فاغر الفم. لكنهُ رغم ذلك شَعرَ بخوفي فأكمل مُبتسمًا:

" لا تقلق. لن أحرمك منها، فقط كُنّ ولدًا مُطيعًا. فأنا أفكر بإعادتك للجبل مع سلوى ورحمة، هُناك تُعيد إحياء الأرض التي تتوق إليها".

مَسح ذقنه ووضع يدهُ على كتفي:

" أريدُ أيضًا التكفير عن الذنب. فأنا أحبك كثيرًا يا بروكا".

في السابق كانت كلماته تُهدئ من نفسي، وتُهديني الأمل. لكنها اليوم تُنبؤني بأن القادم سيكون اسوأ، لن يقدموا لي شيئًا إلا بعد أن يأخذوا أضعافه مُقابلاً.

لكنني لا أملك حقَّ القرار، إنه فقط يُخبرني بما يريد فعله.لَمْ يُخيّرني يومًا. لا أملكْ سوى الحاضر الذي لن يدوم، وأملكُ قلبي المُجزأ.

يُذكرني هذا القلب بقلب أختي، الذي جعلني أدرك كيف يمضي العُمر بنا مُنفصلين عن ذواتنا.

أتذكرها وهي ترجو والدتي لكي تملك قرار حياتها. تُخبرها بأنهم لو تركوها تختارُ ناصر بمليء إرادتها لما حصل كُلُّ هذا.

قد تكون! وإن كانت تطلب القليل لكنهُ يبدو كمطلبي اليوم.

بعـد أن أُلغي زواجـهـا من ناصـر، قـاطعـهـا والـداي ونَبـذاها كـأنهمـالَم يُنجبـاها. كان والدي ينظرُ إليها بازدراء. ووالدتي تُعاملها بجفـاء.لم تتمكن من الحـديث سوى معي. لكنها لا تبث حُـزنها لي أبدًا. كانت تُخبرني بحجم حُبها لي، ثُم تقصُّ عليَّ الحكايات إلى أن أنام وتنامُ بجانبي.

لكنني كُنتُ أشعرُ بها. بُحزنها المُخبئ في قلبها، تشهقُ ببكائها المكتوم بعد أن تظنني قد نمت. أسأل نفسي. ما الذي يُبكيها! هل خسارتها لحسن الذي غادر الجبل بعد أن وعدها بانتظارها. أم ناصر الذي لم يعد كالسابق. يتجنبُ المرور بجانبها. يتجنبنا جميعًا كأنه يراها فينا.

أم يُبكيها والداي اللذان خسرتهما! هذه الفتاة التي كانت تملكُ حُب الكون، أصبحت فجأة وحيدة لأنها تبعت قلبها وتركت الجميع لأجله.

كانت تتعذب بصمت، وحدها.

إلى أن جاء اليوم الأسود.

فقدها الجميع فجأة. غابت لساعاتٍ طويلة. قلق الجميع عليها. كلٌّ يبحثُ عنها في الحقول بفزع. أصَبحتْ الساعة العاشرة ليلاً ولم تظهر أختي.

ظَهر حُبهم الذي أخفوه عنها. كان باديًا من القلق والخوف الذي سَكَنَ ملامحهم، وبعد أن أعياهم التعب. دَخل ناصر فجأة إلى البيت وبين يديه آية مُغمضة العينين بوجهٍ شاحب كالأموات. لا

أذكر سوى هذه اللحظة الأخيرة من وجود أختي، بحثتُ عنها في اليوم التالي لكنني لم أجدها. ولم يُخبرني أحد أين ذهبت، لذا علمتُ بأنني فقدتها للأبد. بتلتي المُقدسة أصبحتْ فانية.

مَضت الأيام التالية هادئة حتى بعد حضور حليم، لكن وجوده كان يبثُّ الخوف في داخلي. يجعلني أشعرُ بالخوف من الفقد، لم يكُن هذا الخوف عاديًا. يتضاعف كُلَّما لمحتُه من بعيد. تُشاهدني رحمة والقلق قد أكل من وجهي. تُخبرني بأنها سعيدة ولن تقلق تجاه أي شيء. بأنها ستعيش اللحظة دون التفكير بالمستقبل، كيف لها بعد كُل هذا الألم والفقد والموت أن تشعر بالطمأنينة هكذا! لكنني اكتشفتُ مع الوقت بأنها قلبها أصبحَ أشدُّ ولم تعد تلك الطفلة التي تخاف من ظِلِّها.

لكنني لم أكُن مثلها، كُنتُ أمرّ بمرحلةٍ مُختلفة. أشعرُ بانقسامي كحدثٍ فعلي. تجاه هذا الخوف الذي نشأ في قلبي. تجاه الماضي الذي يقضُّ مضجعي، تجاه هذه الأرض الغريبة. تجاهها!

عندما لا تملكُ وطنًا لن تُدرك معنى الغربة، لن تعرف شعور ما لم يكُن لكَ يومًا.

لن تُدرك رحمة ما أشعرُ به وما يعبرُ من خلالي. لم تملك رحمة ما كُنتُ أملكه. لَم تَخسر شيئًا.

فَكرت بما أخبرني به حليم، عن تلك الحُرية التي وعدني بها، إلى أن فُتحت أبواب الخروج من الجحيم بأوسع أبوابه. لكن العبور بثمن، الحُرية لها ثمنٌ أيضًا. لكنه باهظٌ جدًا.

كان الخيار أمامي، أما القبول والخروج من هُنا. أو الرفض والبقاء إلى الأبد.

قال لي حليم في اجتماع رجاله، إنه سيحررني أنا ورحمة وسلوى ويعيدنا إلى منزلي في الجبل، أعيد إحياءه من جديد.. قال لي بأنه سيمنحني الحُرية، لكن ذلك مُقابل مهمة واحدة وأخيرة.. مهمة ثنائية فقط، تشملُ رحمة.

أدخلني في حيرةٍ شديدة، أنا رضا. أكادُ أنسى من أنا.

(20)

كانون الثاني 1998

تحرير

"لحريَّتي

التيَ لا تمشي إلا فوق الدمِ".

بعد ليالٍ من الأرق والتفكير القاتل. وَصلتْ بي الأفكار بأنني إنْ لم أفعل هذا الآن سأفعلها لاحقًا بملء إرادتي. هُنا يُمكن للرحمةِ أن تنسحب من قلبي كما حَصلَ مع الجميع. عندما يصبحُ الموت عاديًا كُلما رأيتهُ أكثر. لقد رأيتُ ما يكفي لجعلي مثلهم تمامًا. لولا هذا الصمتْ. الحاجز الذي يحميني لأصبحتُ بلا رأفة، بلا قلب. أعلمُ بأن هذا الحاجز لن يدوم طويلاً، لن يحميني إلى الأبد.

وَصَلتْ بي الأفكارُ أيضًا! أي حُريَّةٍ هذه التي سأعيشها وأنا أتحمَّل عبئ هذه الأرواح التي سأسلبها أجسادها. أي مُستقبلٍ سيُبنى وكيف سأتمكن من العيش مُثقلاً يُلاحقني الذنبُ مثل ظِلي!.

لم يَبُزغ الصباح إلا بعد أن طوَّقني الليل الطويل. حتى شعرتُ بأنه لن ينتهي، رُغم خوفي من حلول الصباح إلا أن ألم التفكير جَعلَ الليل طويلاً.

كانت عيناي مُنتفختين. جسدي مُتعب وفكري مُرهق، كان يُمكن أن أهذي حينها لو كان لديَّ القُدرة على الكلام. مضيتُ أحملُ هموم الدنيا كجبالٍ فوق ظهري، جَعلتني أشعرُ كأنني ذلك المُسن المُنكفئ الذي قام بعلاجي. أتذكرُ كلمته في هذه اللحظة، وأنا في طريقي إلى حليم أُبلغهُ برفضي، يقول لي بصوتٍ هادئ:

" في ظِلِّ هذا الموتْ. وأمام كُلِّ هذه الحقيقة المدفونة تحت الكذب، أرى أن ملاكًا يسكنُ بداخلك. يُمكن لهذا الملاك أن يُبدد الظلام ويجلب النور، عليكَ فقط أن تؤمن بنفسك وأن تُبقي هذا الملاك حيًا".

ما الذي يراهُ بداخلي ولا أراه، كيف أؤمن بنفسي وأنا ضعيفٌ لهذا الحد!

قبل أن أصل بيت حليم رأيتُ رحمة تُشير لي من خلف إحدى الأشجار البعيدة لكي أتبعها. ذهبتُ خلفها إلى أن وصلنا مكانًا بعيدًا. وَقفتُ أمامها، شاهَدتْ الحُزن المُرتسم في ملامحي. تأوهتْ وهي تقول: " أعلم بأنك مُتعبْ، لم نكُن أوفياءً لأرض الجزائر وشعبها. لقد قتلنا وشاهدنا الموت كثيرًا، يطلبون منك ما لا يُمكنك حمله".

صَمتتْ والعَبرَةُ تكادُ تَخنِقُها. قالت قبل أن تنهار بكاءً:

"لكن إن لم تُنفذ ما يريدونه. سيقوم حليم بتزويجي لأحد رجاله ويجعلُ سلوى تذهبُ لعائلةٍ أخرى. هذا ما أخبرني به ...".

يُمكن للشيطان أن يقودك للنار من ألف طريق. يُمكنه أن يسد كل الطرق ويبقي طريق النار مُتاحًا لك. لكنهُ أحرقني قبل أن أختار.

بقيَ هذا الجذر من الشجرة، أيمكنني اقتلاعها بيدي. أن أخسر رحمة مرةً أخرى للأبد! أيمكنني أن أفعلها وأعيش باقي العمر مبتور القلب، بلا حب حياتي.

أيمكنني يا أمي!؟ قولي لي.. أن أقتل لأجل حبي. أخبريني يا آية، أيمكنني التخلي عن قلبي.

لم تعلم رحمة سابقًا بأنني أحبها. لكن في هذه اللحظة وأمام دموعها وشوقي للخروج معها من هنا. أمسكتُ يديها وهززتُ رأسي رافضًا بعنف، في هذا اليوم لأول مرة أحاول الكلام.. أن أقول لها.. لكن كل ما خرج مني هو أنين وصوت حنجرتي غارقٌ بالدموع. وَضعتُ يدها مكان قلبي ثم أشرتُ إليها. شعرتُ بأنني لا زلتُ عاجزًا أمام حيرة عينيها، فركعتُ على الأرض وأجلستها معي.. رسمتُ شابًا وبجانبه فتاة، ثم أشرتُ علينا.. قالت وهي تمسح عيونها المُبتلة:

"أعلمُ بأنك تُحبني. وأنا أيضًا لا أريد أن أعيش مرةً أخرى دونك".

إن طريق الخروج صعب. صعبٌ جدًا يا رحمة، ندوس أولاً على الأبرياء ثم سنمضي. لكن لا يُمكن أن أتخلَّى عنك وعن سلوى.

أكملتُ طريقي إلى حليم مع تغير النوايا. فوافقتُ على ما يريد، أخبرني أن أنتظر الموعد المُقرر الذي سيعلمني به قبل يوم.

وهذا الانتظار.. كان يمشي على جلدي كالنمل، يدخل داخل جلدي ولا ينام.. يأكلُني دون توَّقف.

ازداد شعوري بما حولي. بما مضى، بما سيأتي وبهذا الحاضر المؤلم، أصبَحتْ الأرض بمدادها ضيقة والسماء بوسعها خانقة. كان الألم

ينبثقُ من وجهي فتلاحظهُ رحمة لتقول لي بأن الخروج من هنا يستحقُ ذلك. كان إحساسي بالحُب يتلاشى حتى يختفي. لا أشعرُ سوى بالألم.

كيف لا أشعر! أيمكنني رؤية ذلك الطفل في الشاحنة وأنا أقتل عائلته. هل سأرى نفسي كثيرًا في كل مكان.. تحت الأنقاض أم خلف الأبواب أم في شاحنةٍ زرقاء!.

كان عقلي كقدرٍ على النار، كُلُّ ما فيه يغلي.. يتحوَّل لارتجافة في أطرافي ولهيبٍ فيَّ داخلي .. لا ينضج بل يحترق.

إن الأمر أرحم عندما كان رغمًا عني، عندما أصبح الأمر باختياري أصبح أثقل، عبئًا أثقل من قدرتي على حمله.

هوَّنتُ على نفسي، كُنتُ أرى الجبل بأزهاره. بذكرياته ومائه.. بعبق رائحة عائلتي، أراهُ بعينيٍّ مُشتاق وقلب مُنفطر. أدخل أبوابه وبين أشجاره، أرى كلبي شاهق وهو ينتظرنيً. أُحيي الأرض التي يعشقها والدي، أزرعُ الأزهار التي برؤيتها أرى والدتي.

أرى حلمي بالحياة مع رحمة، هذا النقص الذي بداخلي لا ينضب. هذا العبث وهذه الدماء وهذا العالم المجنون لا ينضب.

لم أعد أحتمل! لقد تعبت، أقسم بهذه الأرض أنني تعبت. كنتُ أقول هذه الكلمة في داخلي وأصرخ.. تعبت، أريد أن أرتاح. أريدهم أن يدعوني وشأني.. أن يصبح حلمًا واحدًا من أحلامي واقعًا.

كان تعبي وحُلمي المؤجل دافعًا لأن أفعل كل ما يريدون مُقابل تحقيقه.. قررتُ أخيرًا بأنني سأفعلها للمرة الأخيرة، ثم أبدأ من جديد، بأرضٍ طاهرة وقلبٍ طاهر. سيغفر الله لي ذنبي.

فأنا رضا العاجز.

(21)

1998 ايار

القاصي

"أرقد أيها البعيد عن عينيَّ
ها هي ذكراك تُوقظني".

"إياك يا رضا أن تبتعد، هناك الذئاب ستأكلك".

تمسكتُ بذراع ناصر وهو يضحك. كُنا نعبر الطريق الخالي.. ترسمُ الأشجار الطريق أمامنا. تبدو في عتمة الليل مُخيفة.

أخبرني ناصر.. بأن الليل لا يُخيف إنهُ فقط يُخفي ما كان ظاهرًا في النهار، أنه يُلقي ستارة ثم يرفعها صباحًا ولا يتغير شيء خلف هذا الستار، كان يقولها بعد أن يراني أرتجف خوفًا، يُحب ملامح وجهي الخائفة فيزيدها. ثم يقوم بتهدئتي.

عبرنا الطريق ومعنا مصباحٌ صغير إلى أن وصلنا المنزل. بعد غياب آية يحاول ناصر جاهدًا أن يكون طبيعيًا، أن لا يلمح أحدٌ حزنه.. لكنهُ لم ينجح بذلك، لم يُفلِح بتلك الأيام التي كان يخبرني بها عن حلمه بالخروج من الجبل. لا بشغف شاب، بل كهروب مُسنٍّ.

قبل ذلك كان ناصر مُتمسكًا بالأرض، يعشقها حتى الموت، لكن عشقًا آخر جعله كل ما بقلبه يُصبح أرضًا قاحلة.

يُمكنني أن أتذكر عندما كُنتُ أهرب من توبيخ والدتي بعد أن كسرتُ فُخارةً تُحبها كثيرًا. حينها لمحتُ ناصر مُتكئًا أمام شجرةٍ خلف منزلهم. كان يسعلُ كثيرًا حتى تقيَّأ. ركعتُ بجانبه وأنا ألمسهُ من رأسه وجسده. كان مُتعبًا ومريضًا. نهضتُ لكي أنادي أمي، لكنه أمسك بذراعي وأعادني راكعًا أمامه. نَظَرَ إليَّ، كانت عيناه قاسيتين مُلتهبتين، وجسده مشدودًا كما لو كان يَصعدُ الجبل كُلَّ اليوم. تساءلتُ بعينيَّ ورأسي عمّا يُريد. قال وهو لا يزالُ ممُسكًا بذراعي:

"لا تخبر أحدًا يا رضا، أنا بخير.. أنا فقط أريد الخروج من هنا، لم أعد أحتمل الحياة على هذه الأرض".

جلستُ بجانبه وعانقته، كان يُخبرني بكل ما يريد. يُفرغ أثقال قلبه معي فيهدأ، يقول لي ما يعجز عن قوله لأي أحد، تقيأ حزنه هذه المرة، لم يعد يحتمل هذا الألم وحده، قال لي وهو يبكي مثل طفلٍ صغير:

" كُنتُ أعزِّي نفسي بفقداني والدتي. بأن هذا الجبل سيُعوضُّني عنها، بأن آية ستُنسيني إياها. أنا أتجزأ يا رضا، لقد أصبحتْ الحياة سيفًا يقطعني. انظرُ إليَّ.. أيُمكن لإنسان خُلِقَ من لحم ودم أن يفعل بي كُل هذا! أن يفعل غيابُهُ كُل هذا! أنا أفتقدها بشدة، أشعرُ بجوفي فارغًا تملؤه الوحدة. لن أحتمل البقاء هُنا".

منذ ذلك اليوم لم يعد يتكلم مع أحد، يعملُ بصمت يكاد يُشابه صمتي إلى أن أتى ذلك اليوم، اهتزاز الأرض ثم غياب ناصر. هذه اللعنة التي أصابتنا بعد الخروج من الجبل.

صَدقتْ اللعنة يا ناصر، صَدقَ والدانا بذلك.

كنتُ خائفًا أن أعيش مثل ناصر بعد فقدانه آية، أن تصبح الحياة هروبًا فقط.. لقد تخلَّى عن الأرض وعن عائلته عندما أصبح فارغًا من الداخل. ما الذي سأفعله أنا!؟ وقد فقدتُ كل هذا مُسبقًا.

أصبحتُ أتذكرُ الماضي أكثر، يعيشُ معي كما لو كان حاضرًا. وكانت رحمة على عكسي تمامًا، تعيشُ المُستقبل فقط ولا تُفكر بالماضي أو الحاضر. تُخبرني عن شوقها لرؤية الجبل والمزرعة التي علِمَتَ عنها من كلمات حليم وبعد أن رسمتُ لها طريق الجبل والمزرعة، كانت تقفز وهي تشعرُ بالسعادة. بأنها ستعيشُ معي هُناك. تحلمُ كثيرًا وتُخبرني بكُل ما تُريد فعله هُناك وعن كميات الكُتب التي ستشتريها، كانت سعادتها تشقُّ روحي بدل أن تُحييها. لم تتمكن من نقل عدوى السعادة إليَّ أبدًا.

بعد أن اقتربتْ المُهمَّة. أيقنتُ بأن النهاية اقتربتْ حيثُ سيكون الفاصل بين حياتين مرةً أخرى، كما أصبحت حياة ذلك الطفل الذي صَعدَ الشاحنة ونَزلَ منها إلى عالم آخر، سينقلني الزمن. سيعيدني إلى ما كنتُ إليه، لكن لا يعود كلُّ شَيء كالسابق.

استيقظتُ صباحًا ثم وضَّبتُ حاجياتي القليلة، كانت رحمة متأهبة.. هذه المهمة كفيلة بتدمير مكانٍ مكتظٍ بالناس، ستكون أكبر مهمة تنتشر بها أعمال هذه المجموعة بشكلٍ علني. كان هذا الهدف، أن يفعلوها دون أن يُمسَك بهم، أن يُصبِح العالم تحتَ سيطرتهم، تحت وطأة الخوف، كان المكان في ساحة التوت مدينة البُليدة حيثُ سيكون عيد الورود الذي يُقام كُل سنة في هذا الوقت. عندما أخبرني بذلك تذكرتُ الصور التي جعلني حسن أراها. تذكرتُ لهفتي لرؤية هذه الساحة، لم أكُن أعلم بأن أمنياتي تتحقق. لكن بطريقةٍ مؤلمة وقاتلة.

تحزَّمتُ وفعلتْ رحمة ذلك، ارتدينا ملابس فضفاضة فتذكرت تلك الملابس التي كانت تُخيطها والدتي لي، إن رائحة الماضي تعود.. تُصبح أقوى، إنها قريبة مني الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

صعدنا سيارتهم. كانت مهمتهم إيصالنا للمكان المنشود وانتظارنا ثم يتم إيصالنا للجبل. إلى الأرض التي أتوق إليها..

صعدنا من الخلف وكان الهواء يلفحُ وجهينا. منذ أول دقيقةٍ صعدنا بها شعرتُ بقلبي يهوي، إنه يسقطُ إلى القاع، هناك في الأسفل. يَصعبُ على جسدي الوصول إنه يطفو على السطح، يُباغتني الألم بشدَّة. جيشٌ بأسلحته يقوم بإبادتي. نظرتُ إليهم، لا يشعرون بي. لا يدخلون إلى أعماقي.

صَمدتُ أمام عينيَّ رحمة، هذا الحب الذي سيعوضني عن كل ما فقدته.

وصلنا إلى المكان. أمسَكتْ رحمة بيدي فنزلنا.. ومضينا لنفعل معًا؛ أن نتشارك الموتَ الأخير لأجل الحياة.

كان الحشدُ كبيرًا والكشك الذي يتوسط الساحة بنخلته الباسقة كان يجلسُ فيها كِبار السن يتبادلون الحديث والمُزاح. أطفالٌ تلعبُ في الساحة بألعابٍ مُتحركة. أرضٌ واسعة تحملُ أرواحًا كثيرة. تحملُ الدماء فوقها، دماءٌ حيَّة.

عَبرتْ وبجانبي رحمة، لم يوقفنا أحد. ولم يلتفت إلينا أحد، لا يعلمون بأننا نحملُ الموت في أجسادنا نُريد وهبها لهم. أثناء عبوري وتأملي بالجميع، رأيتُ طفلين يتشاجران، تمعنتُ أكثر بما يحملانه

ويتشاجران عليه. لم يكُن سوى الكُرات البلورية. هذه البلورات التي كسبتها وفقدتها بنفس اليوم مع كُلِّ ما فقدته. من خلال كُراتٍ صغيرة. رأيتُ طفولتي. كما انتُزِعَت مني بعد سقوطها على الأرض. عادتْ اليوم على هيئة ذِكرى. سعادتي عندما أصبحت بين كفيَّ، ملمسها في جيبي وتوقي للعب فيها.

ثم يكتملُ المشهد. يكتملُ الموت والألم.

سَرتْ الدماء في جسدي حتى شعرتُ بها. انتفضتُ مذهولاً من نفسي، مما أنوي على فعله! كيف لي أن أخطف نفسي مني. أن أصُبح مثل حليم. أن يكون هؤلاء الأطفال نُسخةً أخرى من رضا.

أسقطتُ يد رحمة من يدي وعدت أدراجي بخطواتٍ سريعة وأنفاسٍ أسرع، كأن هذا الحمل الثقيل عن ظهري قد سقط ولم يبق منه سوى أنفاسي المتعبة.

لم أستدر. كنتُ أعلم بأنها ستتبعني إلى أن صَعدتُ السيارة مرةً أخرى وصَعدتْ معي. تذمر الجميع من تراجعي.. لم يكن يعنيني.. لم أشعر تجاه كلماتهم بشيء.

كانت فقط عيون رحمة التي لم تسقط عن وجهي تؤلمني. كيف سأخبرها؟ وكيف ستفهم؟

كانت عيونها تخبرني عن خذلاني لها، بأنني لم أتمكن من الحفاظ عليها. بأن هذه الخطوة ستفرقنا للأبد.

لكن لا!؟ لا يا رحمة.. إن الحياة لا تؤخذ من الموت. إن الحب لا ينمو من الكره، لا يُمكن لنا أن نعيش، لا يُمكنني.. إن أجساد عائلتي تُناديني، صوت رفيق في أذني.

كلمات يونس بأن لا أفعلها.. صوت ضميري. كُلُّ هذا لن يجعلني أعيش بسلام. لن يدعنا.

عندما وَصلنالمْ يحصُل شيء في البدء. لم تلتفت رحمة إليَّ وهي تعود أدراجها.

في اليوم التالي فَعَل حليم كُل شيء، كأنما يُريد خطف كُل روح لم أخطفها من ذلك العيد، من خلالي. أن يقتلَ كُلَّ شخصٍ فيهم منً خلال آلام قلبي.

خرجتُ على بكاء سلوى التي تحاول الإفلات من يد حليم، يشدُها بقوَّة. صَرَختُ بكلِّ صوتي. توقف حليم وتمكنتْ سلوى من الهرب منه، رَكَضتْ إليَّ وعانقتني بشدَّة وهي تنشج.

أقتربَ مني حليم:

"سنأخذها لمكانٍ آخر، عند عائلةٍ تؤويها.. لا يجب أن تبقى لديك".

أي ردٍ سأرد إن كان بإمكاني الكلام حقًا، أي كلمة ستتسع لهذا الألم.. تشبثتُ بها وطوَقتْ يديها بشدة خلفَ رأسي. هَمستْ لي وصوتها يرتجف من الخوف:

"أريد أن أبقى معك، لا تجعلهم يأخذونني".

استدرت ومضيتُ أمشي بخطواتٍ سريعة، لكأنني أمشي على قلبي فأشعر بالنبض تحتهما.. كنت أدعو في داخلي أن ينساني. أن أتلاشى كالسحب، أن أطير فلا يُمسكني، أن أصل لأبعد نقطة.. أن أصل للأمان.

لكن كُلُّ هذا لم يحصل، وَصلَ إليَّ وأنتزعها بثانيةٍ واحدة ثم أقتلع يدها المُمسكة بجسدي.

صرخ في وجهي وطلب مني ألا أعبث منه، ستذهبُ بعيدًا ولن أجرؤ على أخذها، قاومتهم كثيرًا.

ذهبت سلوى وصُراخها الأخير يخترقُ قلبي. يُمزقه.. يُعلِّمني بأنني لا زلتُ ضعيفًا، صغيرًا.. وأن الصمت يُصبح أثقل من قُدرتي على تحمله.

كيف ينقسم هذا العالم لقسمين، ذلك الجبل بشقائه وهدوئه بأكبر مشاكله أن تحب أختي رجلاً غريبًا فنظن بأن الحياة قد انتهت عند هذا الحد.

أن أفقد قدرتي على الكلام فتصبح حياتي مُتمثلةً بعلاجي.

وهُنا حيثُ يُصبح كُل ما مضى لا شيء.

وفي ذات اليوم مساءً رأيتُ رحمة وهي تُزفُّ لأحد رِجال حليم. رأيتها بعينيَّ وشعرتُ بقلب ناصر. إن هذا الألم أضعاف كل ألم، لماذا عادت إليَّ إن كانت ستذهب؟! لماذا جذور هذه الشجرة ضعيفةٌ جدًا فيموت كل ما عليها.

قبل ذهابها اقتربت مني وقالت:

"لستُ غاضبة منك، لكنني خائفة.. خائفة لأنني سأبتعدُ كثيرًا، أعلمُ بأنك تفعل الصواب دائمًا. لمْ أكرهك. لقد كُنتُ حزينة ونادمة لأنني كُنت أنانية ولم أفكر سوى بسعادتنا".

لم أفعل شيئًا. واقفًا لا قُدرة لي حتى على البُكاء أو التوسل أو عناقها ووداعها. هَمستْ لي قبل أن تذهب:

" لقد حَفظتُ طريق الجبل، عندما أهرب سآتي إليك. عليك أن تعود للجبل لكي أجدك".

هززتُ رأسي ولم أرفعهُ، لا أريد رؤية تلك النظرة الأخيرة وهي أمامي.

لم تناديني يومًا باسم، كانت تعلم بأن بروكا ليس اسمي، لكنها لم تكن بفطنة رفيق لهذا كانت تخاطبني بعزيزي. أنا العزيز الذي فقد رحمته.

رأيتها تذهب! صَعدتْ السيارة معه وكان يُفترض ذهابهما لمكانٍ آخر، لن أراها بعد اليوم، بَقيتْ عيناها مُعلقتان بوجهي. ثابتهً، قوية.. لا تبكي.

وقبل الانعطاف الأخير صَرختْ. سمعتُ صراخها الذي اخترقني .. وأنا لم أفعل شيئًا، لم يعد لجسدي القدرة على فعل شيء.

عدتُ إليهم، خاليًا من الذنب مُثقلاً بالفقد الذي بات يدنو مني.

سَكنَ جسدُ ناصر في جسدي، واحتلَّ قلبه مكان قلبي. تساءلتُ عمَّا يفعله الآن، كم طفلاً أصبحَ لديه، هل يذكرني!؟ أيمكن لهذه الأرض أن تُصبحَ صغيرةً جدًا فتُلقيني عند قدميه.

آهٍ يا ناصر، أي صمتٍ هذا الذي أحياني إلى اليوم، ألم تقل لي بأن المرء عندما يشعرُ بالوحدة يصمت. ألم تقل لي بأن ثلاثة أرباع هذا العالم يختارون الصمت وبأنهم يعيشون مثلي؟! لم تقل لي بأن صمتهم قاتل. بأنهم يصمتون ليخطفوا السعادة من بعضهم البعض.

لم تخبرني بأن هذا الفقد مؤلمٌ إلى هذا الحد! نعم. أعترف بأنك أخبرتني، أعترفُ بأنني رأيتك تبكي، لكنني لم أشعر بك وإن ظننتُ ذلك. من المُحال أن نشعر بأحد كما يشعر. نكذب إن قلنا ذلك، إن أقصى ألم هو ما نشعر به الآن في هذه اللحظة، ولن تكون آلام العالم سوى سراب ووهم. شيءٌ صغير مثل خرم إبرة، مؤلمٌ جدًا كاختراق سكين.

(22)

الدانـــي

"أيها القريبُ مني

أقربُ من رمش عينيَّ

ها هي ذكراك، تُحييني".

عشتُ كل انفعالاتي وحدي؛ الهدوء التفكير الانهيار البكاء المتواصل، والصراخ يُقطِّعُ أحشائي.. كُل هذا لم يفعل بي شيئًا، لم يقتلني. وهذه الغرفةُ المُظلمة المُتصدعة هي الشاهد الوحيد. في الخارج تُمطر أو يتساقطُ الثلج أم تُشرق الشمس، لم أكُن أعلمُ شيئًا.

خرجتُ أخيرًا، بعد مُدة لا أدركها. لكنها لم تكن الحياة التي خرجتُ إليها، وجدتُ بأنني في مكانٍ آخر كأن البيوت تَغيَّرت والأرض تغيَّرت. لقد حملني الهواء أنا ومَنزلي لبقعةٍ أخرى .

رأيتُ منزلين متجاورين بسقفٍ أحمر قان، تجلسُ أمام المنزل الأول امرأةٌ مُسنة تقوم بنتف الصوف وحولها العديد من الأطفال يبدو أنهم أحفادها، أما باقي المنازل فكانت هادئة كهدوء القبور.

هُنا لم أعد أميز بين الحقيقة والحلم من الكابوس، كل ما يحصل مُبهم كليلةٍ عاصفة تُغيِّرُ الأرض من بعدها.

بحثتُ عن الأماكن التي أعرفها، عن البيوت التي آلفها.. عن الحجارة التي مررتُ بها، لم يكنُ أيٌّ من هذا في مكانه. لهذا بحثتُ عن حليم ورجاله، هو البوصلة التي تحدد الواقع من الخيال. الحُلم من الكابوس.

لم أجده وعندما سألتُ فيما بعد أخبروني بأنه سيأتي خلال بضعة أيام لأخذي.. جاء بي إلى هُنا ولا أحد يعلمُ لماذا، لكنني علمت بأن الكابوس لا يزالُ مُستمرًا.

أنتظرُ أن تنبتَ الجذورُ مرةً أخرى، من أي مكان.

وبعد أن أدركتُ بأنهم هُنا نُسخةٌ أخرى. جعلني هذا الانتشار أشعرُ بأن الأرض لهم، بأن أي بقعةٍ سأهرب إليها ستكون لهم. بات إيماني بوجود العالم الآخر يتضاءل.. أعتقد بأنهم أنفسهم بدؤوا يشعرون بذلك.

لكنني رأيتُ هنا بأنهم طبيعيون إلى حدٍ كبير، يمارسون حياتهم كما ينبغي لها أن تكون.. يُراوغون هذا الزمن. يحتالون على الأعين فلا يشاهدهم أحد.. إنهم الظَهر الذي يستند عليه الآخرون. هُنا تخبأ العقول فقط.

أي عقلٍ يُدبر لي.. بات شكِّي أقوى، أنهم يخبئوني لما هو أعظم.. إن حيَاتي المُمتدة لأجلهم لا لأجلي، هُنا سيحصل شيء.. هُناك سيحصل لي شيء.

لكن قدراتي أضعف من معرفة ما يريدون.

ساعداي أصبحا أقوى، شعرتُ بشعر ذقني ينمو أكثر. لكن قلبي لا يزالُ ضعيفًا كغصنٍ بين حجرين.

(23)

حزيران 1998

أما قبل

وصلتُ إلى المُنعطف الأخير. حيثُ تنتهي الطُرق السالكة ولا يبقى سوى طريق. أذعنتُ لوجودي معهم، أكرمتُ الضيوف القادمين من بعيد، عدتُ للجلوس معهم مُنصتًا لما يقولون، عدتُ للزراعة والعمل كما السابق، صندوقٌ في أحشائي يُملَئُ بما يقولون، لا يُمكنني إفراغهُ أبدًا.

عاد قلبي هادئًا فعادوا للاطمئنان لي. إن جَمرَ حقدي قد خَمدَ مع الوقت، وأفعالي ميزان ما في قلبي.

وعدني حليم بعد أن لاحظ هدوئي وطاعتي. إن بقيتُ كذلك أن يُعيدني إليه كالسابق، فقبلتُ ذلك. أن أكون تابعًا أعمل ما يريدون من أعمالٍ بعيدة عن قتالهم.. لم أعد أرى في عينيه سلوى ولا رحمة ولا حتى عائلتي.. لم أعد أرى سوى رجلٍ يعمل كآلةٍ من حديد ولا يُمكن أن نلوم الحديد إن تسببت بقتل أحد.

استمرتْ الشمس بالشروق والغروب، لم تتغير لموت أحد أو ميلاد أحد. استمرتْ الأرض بالدوران.

لكنني يا حليم لستُ بروكا، أنا رضا.

رضا؛ ابن والدي وأمي و ناصر ابن عمي وأختي آية، والفتاة التي عشقتها رحمة، لا يُمكنني يومًا جزَّهم من حياتي حتى لو كانوا شوكًا يُغرَزون بداخلي. هُم دُنياي وذاكرتي، هُم أرضي ووطني.

لهذا كُنتُ قبل أن أنام كل ليلة، أعيد كلمة واحدة في ذهني مرارًا وتكرارًا، أحتاجُ لنطقها، هي كلمة واحدة فقط.. استمررتُ لزمن طويل ولم أتمكن من قولها، كُنتُ أختلي بنفسي وأنا أحاول نطقهاً فتخرج كأصواتٍ من ليلٍ عاصف.

لكنني لم أستسلم. كُنتُ أتخيَّلُ شعوري إن قلتها. كيف سأصبح ما بعد قولها، فأزدادُ إصرارًا كل يوم، يَخرجُ الصوت صفيرًا وأحيانًا همهمات، أو نغمةً لا وتر لها.

وما قبل اليوم الأخير!

استيقظتُ من النوم أمسحُ العرق الذي يتصبب من جبيني، رأيتُ كابوسًا أقضَّ منامي وأزعجني، نظرتُ حولي فلم يكُن أحد، وبباقي أملٍ يائس، أردتُ أن أجرب.

فقلتها. خَرجتْ من حنجرتي، لقد سمعتها.. رُغم فراغ الغرفة إلا أنني خفتُ من سماع أحدٍ لصوتي، هذا الصوت الذي تاقت والدتي لسماعه كثيرًا، هذا الصوت الذي خُطف مني مثلما خُطفتْ. ركضتُ لأبعد مدى حيثُ لا يُحيطني سوى الصخور وبعض الأشجار، أعدتها كثيرًا، شعرتُ بكلماتها في جسدي فتشعرني بنشوةٍ كبيرة.

هذه الكلمة؛ هي النور بعد هذا الظلام الشاسع. كتمتها في قلبي رغم أنني تمنيت الصراخ وقولها بأعلى صوت، ارتجفَ جسدي كأن صاعقةً قد ضربته، فركعت أطوقه وأغمضتُ عينيَّ أمتصُ كل هذه السعادة، أن يُصبح جسدي جزءًا من الأرض.

كل يوم كُنت أجلس وحدي وأعيدها خوف أن أفقدها. أن أتأكد بأنها لا تزال في حوزتي.

انتظرتُ ذلك اليوم الذي سأستخدم به هذه الكلمة، انتظرتُه بشغف.

وبعدة مُدة، مُدة طويلة جدًا أتى اليوم الذي أنتظره.

علمتُ منهم فيما بعد أننا سننتقل لمكانٍ آخر وسنمرُّ بأكثر من نقطة تفتيش. جمعونا معًا وأخبرونا عمَّا نقولُه وما سنفعله في هذه الحالات. لم يحتج منهم أن يبذلوا جهدًا معي.. فأنا الصامت الذي لن يفيد أحدًا بشيء، أنا الصامتُ الذي يحمل في جعبته كُل كلمات العالم وآلامه.

أتى ذلك اليوم الميمون، فُرغت المنازل من الأثاث ومن البشر، مضينا لنعبر لمكانٍ آخر وتفرقنا في مجموعات. سيقولون للجميع بأنهم فقدوا بيوتهمً وسيعودون لجذورهم في مكانٍ آخر..

عبرنا الحاجز الأول.. ثم الثاني فأتى الثالث وسمعت إحداهن تقول بأنه الأخير.

أشرتُ لبعض الرجال بأنني أحتاج لدورة المياه. نزلتُ بعد أن أخبروني بمكانه، ثم عدتُ إليهم بسرعة.. كان الطريق طويلاً لكن

أشعة الشمس ودفئها لم تدع للضجر مكانًا، كُنتُ أراقب الأشجار وهي تبتعد وأرى البيوت التي تقترب. كان تدفق الحياة شديدًا عليَّ.

إن هذه الأرض هي السبب بهذا التمسك، كان والدي مُحقًا.. مُحقًا تمامًا.

إن كُنا نريد أن نعيش، علينا أن نتمسك بالأرض، وإن مُتنا في سبيلها، أرضي هي الجزائر. ولدتُ لأكون وفيًا لها.

غَنَّتْ إحدى النساء في الشاحنة التي أركب بها، غناءً حزينًا كأنها امتصته من هذه الأرض. ومن هذا الماضي. كُنا نجلس في الشاحنةٍ من الخلف ولم تأبه هذه المرأة بأي أحد، غنَّت كأنها تودِّع الحياة.

أيمكن لي أن أحملَّها أيضًا ذنب ما حصل؟ ألم يكن لديها خيار الاعتراض! ألم تُنجبُ النساء لكي تُعَمَّرَ هذه الأرض.. كيف يلدن من يُنهيها!؟ استمر صوتها وصدى صوتها إلى أن وصلنا.. وبقيت أفكاري مُتصلة مُفككة، كقطارٍ لا يعلم وجهته.

وصلنا إلى المكان. فاتخذت كل عائلة بيتًا لها، أما أنا فمشيتُ في دروبها لكي تبقى عالقةً في ذاكرتي.. كُنت أرتدي زيًّا أسود، وهذا القميص ذو القبة الضيقة لا يُناسبني أبدًا ولم أحبب يومًا ما يعطونني إياه.

وبعد ساعتين من وصولنا إلى القرية الجديدة. حصل ما كُنتُ أنتظره، لكنه أشد مما توقعت، وأسرع مما توقعت.

حَدثتْ المُعجزة، تذَّكرت ما قالهُ العجوز لي.

(24)

تشرين الأول 1998

أما بعد

بعد أن عدتُ من جولتي، كان المكان مُحاصرًا، تجمَّع المئات من الجيش وطوَّقوا المكان، كل أسلحتهم المُخبأة تحت الأرض قد ألقيت في المنتصف فأصبحت أكوامًا. كل هذا لم يزلزلني كما زلزلني رؤية رأس حليم مُحاصرًا بين أيدي عناصر الأمن.. اقتربتُ منه فجحظتْ عيناه حتى كادتا تخرجان من مقلتيه. لقد رأى حُقد كل هذه السنين، هذا الحقد الذي تعلمتُ منهم كيف أخفيه، حقد هذا اليتيم قد ألقى برؤوسهم إلى التهلكة.

يُمكنني القول لأمي، بأنني أصبحت أمتلك قدرة أن أخفي ما بداخلي.. يُمكن لهذا الزمن أن يعلمنا كيف نتحوَّل.. كيف نظهر للعالم الجانب الذي يريدونه حتى نفعل ما نُريد.

في ساعةٍ واحدة فقط أصبح المكانُ فارغًا، فأخذوا الأطفال لدور رعاية تُعيد تأهيلهم.

علمتُ بأنه تم الإبلاغ عن الآخرين ورصد أماكنهم.. تمكنتُ من الانتقام لكل من فقدت دون أن أفقد نفسي أيضًا.

أخذني أحدهم وتكفل بمساعدتي. لكنني بعد محاولاتٍ عديدة تمكنت من إخباره بأنني أريد العودة للمنزل. رسمتُ بأقصى ما أستطيع ذلك الطريق الذي أتذكره.

أخذني لعدة أماكن لم تكن منزلي.. وفي إحدى المحاولات وصلنا عند ذلك المنعطف الذي يؤدي للجبل. هززتُ يده بشده لينزلني. وبعد أن نزلتْ طلبتُ منه أن يذهب، لم يتركني بسهولة لكنه بالنهاية تركني، لقد كبرت، لم يعُد الظلام يُخيفني ولم تعد تتشكل هذه الأشجار وتتحوَّل، لم يعد هذا الطريق يا ناصر مصدر رعبٌ لي، كُنت مستعدًا للموت مُقابل أن أمشيه لو للمرة الأخيرة.

هذا الطريق.. لا يزال يحفظ أقدامي وأقدام ناصر نزولاً وصعودًا إلى الجبل. حتى في تلك المرات التي كُنا نجمع بها جذوع الشجر للمدفئة، وهذه الأشجار التي اعتنى بها والدي، لا تزال حية.

مشيتُ وراقبتُ كل شبرٍ فيها.. ركعتُ وقبَّلتُها..

وإن ذهبَ الجميع فإن للأرض القدرة على الاحتفاظ بروائحهم وأطيافهم. يُمكنني أن أراهم بوضوح، أن أشعر بهم.

قبل سنوات. كيف لهم أن يتوقعوا بأن هذا الطفل الذي كان يرتجف بجانبهم، سيكون نهايتهم، كيف لهم أن يعلموا بأن أرجلهم التي داسته ستُقاد لحبل المشنقة.

كيف لهم أن يعلموا بأن كلمة واحدة مني.. ستقضي عليهم.

"قتل.. قتل.. قتل.."

أخبروني عندما سمعوا هذه الكلمة أن أكمل طريقي مع المجموعة وأن أبدو طبيعيًا. بأنهم كانوا يبحثون طويلاً عن الذين أفسدوا هذه البلاد، لم يعلموا بأنني قد قُدتهم لملجأ الشيطان، حاولوا كثيرًا أن يأخذوا المزيد من أقوالي لكنهم فهموا سريعًا بأنني لم أتمكن سوى من قول هذه الكلمة. صَدقوني أخيرًا.. آمنوا بي من كلمةٍ واحدة.

كيف لهم أن يعلموا بأن بروكا سيتكلم أخيرًا، تلك الكلمة التي لم يتوقعوها.

بعد أن شاهدتُ قمة الجبل، انتعش جسدي من جديد.. ركضتُ بكل ما بداخلي من شوق. أعلم بأنني لن أرى أحدًا.

لكنني أريد أن أبكيهم وحدي. أن أسكن مع أرواحهم.. أن أنام على الأرض التي ماتوا بها.. لكن دهشتي ازدادت عندما رأيت بأن كل شيء لا يزال على حاله.

كانت الأزهار بألوانها تُشرقُ على باب المنزل وكان المنزل مضيئًا من الداخل. المزرعة حية والأرض تشقُّ نفسها فتُخرِجُ الأعشاب منها، أنا متأكد بأنني رأيتهم يحرقونها لكنها الآن أمامي كما تركناها أنا وأبي قبل أن ننزل إلى السوق.

كما هي لم تتغير! ورائحة طعام أمي تخرجُ من الداخل، وهذا هو ذاته موعد عودتنا أنا و والدي من السوق، الشفق يُلقي أشعته مع رائحة الطعام وصوت كلبي من بعيد.

أنا أحلم. بالتأكيد، ما الذي يُفسر كُل هذا! إن ما عشتهُ كان

مُجرد حلم رُغم أن هذا الحلم طويلٌ جدًا. هذا الكابوس الذي نشأ بسبب اللعنة التي أخافني بها والدي.. نعم! سيثبتون لي بأنهم أحياء، ستخرج أمي من الداخل فتناديني. صوت والدي من بعيد يوبخني لأنني ابتعدتُ كثيرًا عن المنزل.

أولاد عمي يعودون من رحلة الصيد. لأبكي عند أقدامهم لأنهم لم يأخذوني.

ها أنا أنتظر.. فُتِحَ الباب على مصراعيه.

خَرجَ ناصر يحملُ أكياسًا بين يديه. لمحَني، دقَّ قلبي بشدة .. أقعدني الفرح أرضًا فركعتُ أمامه أبكي، اتقيأ حُزني، لا لم يكُن حزنًا، سأصرخ ألمًا وأملاً وشوقًا.. كان يغيب من أمامي فأتوسل لهذه الدموع أن تنساب بسرعة. أريد أن أراه، أريده أن يعرفني حتى بعد أن أصبحتُ كبيرًا، أخاف أن يختفي من أمامي فيكون هو الحلم ولا زلتُ في الكابوس.

لكنه عندما أسقط الأكياس من يديه ونَظرَ إليَّ صرخ بصوتٍ عالٍ، أدركتُ من خلالها أنه تمكَّن من معرفتي:

"آية.. تعالي".

خَرجتْ من خلفه أختي آية تحمل فتاةً صغيرة بين أحضانها.. نظروا إليَّ، صمتوا يتمعنون بي وأنا أتوسل في داخلي أن يقتربوا. أريد أن ألمسهم فأتأكد من وجودهم.

صرختُ أنادي.. ناصر، آية.

صرختُ بداخلي لكنه لم يَخرج مني سوى كلمتين:

"بروكا، قتل ، بروكا، قتل..".

ركض ناصر وركع أمامي، لم يقل أي كلمة. عانقني بشدة وهو يردد:

" رضا.. رضا، حبيبي"

كيف يمكن أن يكون لاسمي هذا الوقع. أن يوجد لأجل إحياء خلايا جسدي. ومن خلف ظهر ناصر، رأيتُ آية تضع الطفلة أرضًا وتركض إلينا.

عانقاني بشدة.. اختلطت الدموع والألم والأمل معًا.

نبتت الجذور مرةً أخرى كبيرة، قوية.. تمتدُّ إلى أعماق الأرض وأقاصي السماء.

أخبرني ناصر أنهم بحثوا عني كثيرًا، وبأن البلاد كانت في حالة موتٍ وجمرٍ وظلام. بأن قُرى كثيرة تمت إبادتها، وأكثر من 500 ألف قتيل وجريح ومفقود ومغتصبة. بأن مَعالم كثيرة تم تدميرها. بأن آلاف الجزائريين الذين هربوا من الجزائر لإنقاذ حياتهم من هذا الموت الذي لا يعرفون سببه ولا من أين يأتي. فقد كان أحيانًا يأتي من داخل المنزل وأحد أفراده كما رأيت ذلك الأخ الذي قَتل أخاه.

أخبرني عن الحُزن الذي خيَّم عليهم جميعًا، الخوف والفقر والآلام. بأن الغابات والأشجار قد تأثرت أيضًا، لم يعلم ناصر بأنني كُنتُ في ذلك العالم الآخر. لم يعلم بأنني شاهدتُ كُل شيء بأمِّ عينيَّ.

أما آية التي ظننتها قد ماتت. فقد كانتُ تسكنُ في مدينة وهران عند عائلة أمي، ذهبت لتتم علاجها ثم تعود إلينا بعد أن تهدأ روحها التائهة، كُنتُ صغيرًا عندما غابت. لم أتمكن من سؤال أحدٍ عنها ولم يذكروها كُلَّ فترة غيابها. أخبرتني بأنهما عندما علما بما حصل عادا إلى المزرعة. قاما بإحيائها من جديد ثم تزوجا، أخبرتني بأنها تُحِبُّ ناصر كثيرًا وأنه تمكَّن من مُساعدتها على تجاوز الصدمة التي تلقتها جرَّاء ما حصل.

أخبراني بأنهما سيُكملان علاجي. فقد لا أكون مُصابًا بحبسة كلامية وإنما شيء آخر. لم يعد مُهمًا. إن بروكا قد حفر مكانه بداخلي، إنهُ الصمتُ الذي كُنتُ أحياهُ كُل يوم. هو الذي أنقذني من الموت. من أن أصبح مثلهم.

كُلَّ ما حَصل معي بقي مثل صندوقٍ أسود. يعيشُ بداخلي فقط.

قد تأتي رحمة ذات يوم . ذات يوم!

المجهول

استيقظَ رضا صباحًا. كان نائمًا على ظهره فوقعتْ عيناه على السقف. شَعرَ باهتزاز للأرض، نَهضَ فَزعًا ثم نَظرَ ليديه وجسده بعد أن رَفع الغطاء عنه.

كان قلبهُ يخفق بقوّة حتى يكادُ يتوقف من شدة الخوف. كُل مكامن الإحساس في داخله تقول له بأنه لا يزالُ معهم. سيأتون إليه بعد قليل يأمرونه بمهمةٍ أخرى، لم يتمكن من تحريك جسده.

يتساءل. كيف يفصلُ بين الكابوس والواقع! يتمنى أن يكون كُلُّ هذا حُلمًا. بأنهُ الآن في الجبل مع عائلته، بأن كُلَّ ما حصل بسبب الخوف من اللعنة التي أصبحتْ متبلورة في الكوابيس المُستمرة.

نَظَر إلى الباب. تسمرَّت عيناه عليه، يخافُ أم يتوق لفتحه.

بابٌ واحد يُحدد مصيره.

بابٌ واحد ويُظهِرُ العالمُ من خلفه.

الجنة أم الجحيم..

- النهاية -